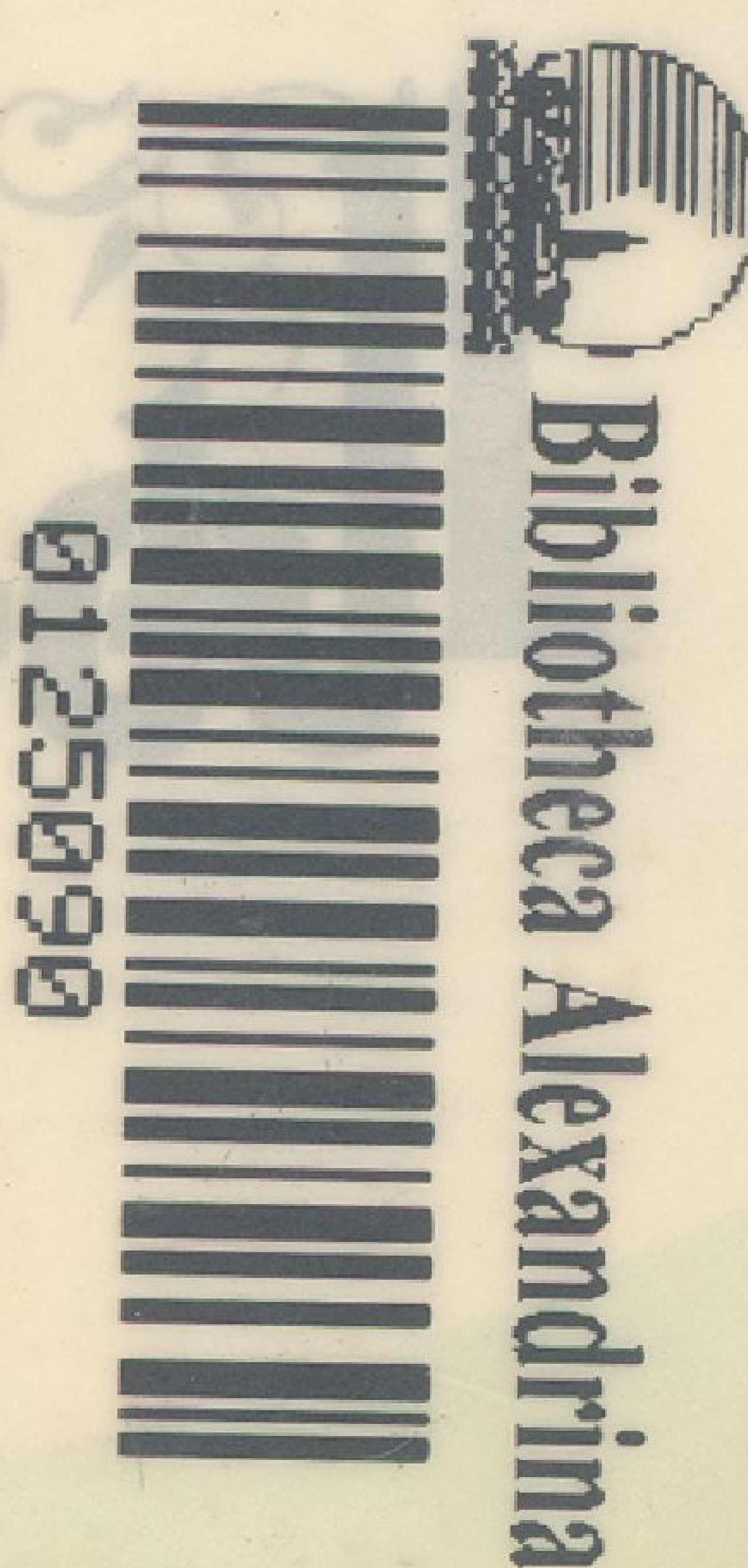
اقرأ

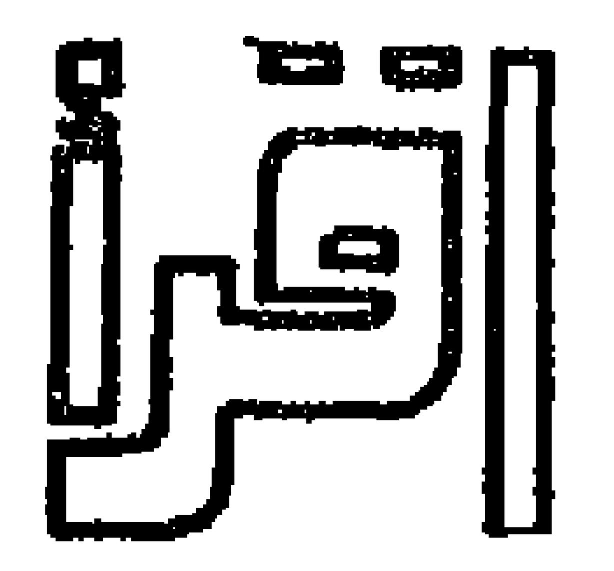
محمد الدسوقي







دار المعارف



[٣٣٨]



محمد الدسوقي

الهجرة في القرآن



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد النبي الأمى الذى جاهد فى الله حق جهاده حتى بلغ الرسالة وأدى الأمانة وهدى البشرية إلى سبيل السعادة فى الدنيا والآخرة.

وبعد فإن الهجرة من مكة إلى المدينة تعد من الأحداث الفاصلة فى تاريخ الدعوة الإسلامية، فقد كانت نهاية لعهد تعرض فيه المسلمون لألوان مختلفة من الاضطهاد والأذى. فما ضعفوا وما استكانوا، وبداية لعهد جديد نصر الله فيه الإسلام على أعدائه نصرًا مؤزرًا، حيث خاضت القلة المؤمنة حروبًا عديدة ضد الكثرة المشركة، فما أجدت كثرة المشركين شيئًا، وما حالت قلة المؤمنين بينهم وبين الظهور على أعدائهم، لتصبح كلمة الله هى العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الهجرة حديثًا مجملا يعتمد على الكلمة الموحية والعبارة الموجزة ذات الدلالات الضخمة والمعانى الكبيرة، وهذا منهج القرآن بوجه عام فى عرضه للأحداث والأحكام، على أن حديث القرآن عن الهجرة لم يكن خاصا بذلك الحدث الرائع الذى ارتبط بتاريخ الأمة الإسلامية كل الارتباط وأصبح رمزًا على الفداء والتضحية والجهاد، ولكنه تجاوزه إلى ما يتصل بالمعنى اللغوى لكلمة الهجرة، وإن كان بين هذا المعنى وذلك الحدث صلة وثيقة ومعان مشتركة.

يقول ابن فارس فى مقاييس اللغة عن مادة هجر الهاء والجيم والراء أصلان يدل أحدهما على قطيعة وقطع، والآخر على شد شيء وربطه.

فالأول الهجرة: ضد الوصل، وكذلك الهجران، وهاجر القوم من دار إلى دار: تركوا الأولى للثانية كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكة إلى المدينة. ثم قال: ومن الباب: الهُجر الهذيان. يقال: هجر الرجل، والهُجر الإفحاش فى المنطق. يقال: أهجر الرجل فى منطقه قال:

كماجدة الأعراق قال ابن ضرة عليها كلامًا جار فيه وأهجرا

ورماه بالهاجرات وهى الفضائح، وسمى هذا كله من المهجور

الذى لا خير فيه. ويقولون : هذا شىء هجر، أى لا نظير له كأنه من جودته ومباينته الأشياء قد هجرها.

وهذه الدراسة عن الهجرة فى القرآن تتناول كل ما جاء فى الكتاب العزيز من آيات تشتمل على مادة «هجر»، مع الاهتمام بإبراز أهم أحداث الهجرة التاريخية فى ضوء الآيات القرآنية دون اهتمام بالتفاصيل الجزئية والأحداث الفرعية، مع الاستهداء فى هذا بكتب الحديث والتفسير والسيرة.

وقد اقتضى منهج البحث أن أقدم له بدراسة سريعة عن مراحل الدعوة قبل الهجرة، ويعقب هذا حديث عن أسباب الهجرة وعرض لأهم أحداثها وإشارة إلى هؤلاء المجاهدين، الصادقين من المهاجرين والأنصار، أولئك الذين أخلصوا لله وضربوا أروع الأمثلة فى ثبات اليقين وجلال الفداء.

ثم تناولت بعد هذا دراسة الآيات التى وردت فيها مادة «هجر» دون أن تكون لها علاقة بأحداث الهجرة التاريخية..

وعقدت فصلا موجزًا عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا» لأن لهذا الحديث صلة حميمة بغاية الهجرة، ولأن من العلماء من شرحه شرحًا يتعارض مع هذه الغاية.

وجاءت خاتمة هذه الدراسة تسجيلا لما انتهت إليه من دروس ونتائج..

وكل ما أطمع فيه أن أكون قد قدمت عملا نافعًا يلق مزيدا من الضوء على بعض آيات الكتاب العزيز وأن يكون فى هذه الدراسة ما يهدى إلى التى هى أحسن.

والله ولى التوفيق

محمد الدسوقى

مجمع اللغة العربية

مراحل الدعوة قبل الهجرة

١

مما لاخلاف عليه أن الناس كافة وأهل الجزيرة العربية بوجه خاص كانوا قبيل بعثة محمد ﷺ فى حاجة ملحة إلى من ينير لهم طريق الخير ويحول بينهم وبين ما هم فيه من جهالة وضلالة.

لقد فقد المجتمع البشرى كل أسباب الاستقرار والأمن، وأصبح منطق الغابة سائدًا بين الجميع وهجر الناس بوجه عام تعاليم الرسالات الإلهية وأخذوا يسجدون لأصنام وأوثان يصنعونها بأيديهم، وانحرفت لدى بعضهم عاطفة الأبوة انحرافًا شاذًّا، فكان إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون. وعلى الجملة فإن الظلام كان مطبقًا، ظلام العقائد والعادات والأخلاق، وكان لابد أن يشرق الفجر الذى يبدد الغياهب ويهدى إلى سواء السبيل حتى تستطيع البشرية أن تواصل مسيرتها على ظهر هذه الأرض كما أراد لها الله.

وانبثق الفجر فى بطحاء مكة ببعثة محمد بن عبد الله إلى الناس

كافة بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

وكان محمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته قد حبب إليه الخلاء، فكان يعتكف الليالى ذوات العدد فى غار حراء، يفكر فى ملكوت الله، لقد اصطفاه رب العالمين لحمل الرسالة الخاتمة والهداية العامة، وكانت تلك الفترات التى هجر فيها الحياة فى مكة ولجأ إلى ذلك الغار يقيم فيه وحده لا يهاب شيئًا بمثابة الإعداد للقيام بأمر السماء يبلغه إلى الناس مهما واجهته الشدائد والمصاعب.

ونزل الوحى على الرسول ﷺ فى الغار وكان فى نحو الأربعين من عمره، فقال له جبريل اقرأ وكان محمد ﷺ أميًّا لا يعرف الكتابة والقراءة فقال: ما أنا بقارئ فضمه جبريل فى شدة ثم أرسله وقال له: اقرأ، فرد الرسول عليه بمثل ما قاله أولا، وكرر جبريل ضم الرسول مرة ثانية، وطلب منه أن يقرأ، وقال الرسول ما أنا بقارئ وهنا ضم جبريل الرسول للمرة الثالثة ثم أرسله وقال له: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾.

وقرأ الرسول ﷺ هذه الآيات ووعاها وهو فى حالة من الفرق والجزع مما رأى، وتركه جبريل ولم يلبث الرسول أن ترك الغار راجعًا إلى زوجه يرجف فؤاده، وحين دخل عليها قرأت فى وجهه دلائل ما ألمّ به وحدث له، فلم تكد تسأله عن شيء حتى طلب إليها أن

تهيىء له غطاء يكنه عله يذهب عنه ذلك الروع الذى سيطر على حواسه وملك عليه نفسه.

وبعد لحظات من القلق عاشتها السيدة خديجة رضى الله عنها، أخبرها الرسول ﷺ بما كان وهو فى الغار، واستقبلت الزوجة الشفيقة بزوجها ما قصه عليها بنشوة من الغبطة، لأنها أدركت أن زوجها مقبل على مهمة جليلة تصل الأرض بالسماء، وكان مما قالته له تواسيه وتبشره: أبشر يا بن عم واثبت، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبىّ هذه الأمة[1].

وكان ورقة بن نوفل بن أسد ابن عم للسيدة خديجة وكان قد تنصر وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، ورغبت الزوجة الطيبة أن تخبر ابن عمها بما حدث لزوجها فقد يكون لديه ما يزيد قلبها اطمئنانًا، على ما ترجوه لزوجها وتتوقعه له.

وما إن عرف ورقة أمر الملك الذى هبط على محمد فى الغار حتى بشره بالنبوة وحذره من قومه الذين سيكذبونه ويؤذونه ويخرجونه ويقاتلونه، وتمنى أن يمتد به الأجل ليكون له ردءًا ونصيرًا.

ومكث الوحى فترة لا ينزل عليه، وكان الرسول فى شوق لرؤية الملك الذى جاءه فى الغار، وتحول الشوق إلى حزن بالغ حين داخله اليأس بأنه قد لا يراه، إلى درجة أنه آثر الموت على الحياة، وذهب

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٢٥٤

أكثر من مرة ليلقى بنفسه من فوق ذروة جبل من جبال مكة. ولكن الله الذى اجتباه كان به رءوفًا رحيمًا، فتبدى له جبريل يبشره بأنه رسول الله حقًا، ثم تتابع عليه وحى السماء بعد أن فتر مدة لم يتفق المؤرخون على مقدارها.

وأخذ الرسول الكريم ﷺ يدعو الناس خفية إلى الله وآمن به من آمن وفى مقدمتهم زوجه خديجة وأبو بكر وابن عمه على ابن أبى طالب وزيد بن حارثة وبلال بن رباح، وكان من هداه الله إلى دعوة الإسلام يتوارى من المشركين بصلاته[1]. فمنهم من كان يصلى فى بيته ومنهم من كان يذهب إلى بعض الشعاب[2] حتى لا يراه أحد من قومه، ومع حرص المؤمنين على أن يخفوا مظاهر إيمانهم خوفًا من سطوة الجاهلية حدث أن سعد بن أبى وقاص ومعه نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يصلون فى شعب من شعاب مكة، فاطلع عليهم نفر من المشركين فأنكروا عليهم ما يصنعون، ولم يرض سعد ومن معه بالدنية فى دينهم فدفعوا عن

---

(١) فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء قبل الهجرة بعام، وذكر أنها قبل هذا كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها، وكانت كل صلاة ركعتين، فلما كانت ليلة الإسراء وفرضت الصلوات الخمس أتمها الله فى الحضر، وأقرها فى السفر على فرضها الأول ركعتين.

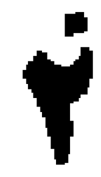
(وانظر الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى ج ١ ص ١٦٦ ت. دكتور مصطفى عبد الواحد).

(٢) الشعاب واحدها شعب وهو ما انفرج بين جبلين.

(انظر لسان العرب مادة شعب).

أنفسهم ما حاوله المشركون من إيذاء المسلمين وضربهم، ويروى أن ابن أبى وقاص ضرب رجلا من هؤلاء المشركين بلحى بعير فشجه، فكان أول دم هريق فى الإسلام...

ورأى الرسول بعد هذا أن يجمع المسلمين فى دار الأرقم ابن أبى الأرقم وكانت فى أصل الصفا يصلون فيها حتى لا تتعرض لهم قريش بالأذى، فقد كانت أخبار الدعوة الجديدة قد تناقلتها الأفواه، وأخذ المشركون يؤذون من يرونه يظهر الإيمان بمحمد وما جاء به، ولكن الإيمان كان أقوى من عسف الطغيان، فما خضع المؤمنون لما أراده الكافرون، وما زادتهم الشدائد إلا اعتصامًا بحبل الله وثباتًا على طريق الهدى والنجاة.



وأمر الله نبيه أن يصدع بكلمة الحق، بعد ثلاث سنوات من الوحى كان فيها يدعو الناس سرًّا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام فلما جهر الرسول بالدعوة لم يجد من أهل مكة إلا إعراضًا عنه ونفورًا منه، وثورة عليه، فما هذا الدين الجديد الذى خصه الله به ومحمد لديهم ليس أهلا له، وحاولوا بكل ما يستطيعون من وسائل أن يقفوا فى وجه محمد ليحولوا بينه وبين ما يريد، ولكن محاولات الجاهلية على كثرتها وتنوعها باءت بالخسران والهزيمة وانتصر

الحق وعلت كلمة التوحيد ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

لقد أخذ النور الذى جاء به محمد يغزو القلوب ويسير العقول. وأخذ الشرك يسوم هؤلاء المهتدين صنوفًا من الأذى والاضطهاد وما كانت قريش تتعرض للرسول كما تتعرض لأصحابه بسبب عمه أبى طالب، فله فى مكة منزلته الجليلة وقد وقف مع ابن أخيه يذود عنه ويعطف عليه على الرغم من أنه لم يؤمن مما جاء به.

ولما رأت قريش أن أبا طالب يحمى الرسول مشى رجال من ساداتهم وأشرافهم إليه وكلموه فيه وقالوا له إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيه. ولم يستجب أبوطالب لسادة قريس وإن كان قد تلطف معهم فى القول وردهم ردًا رقيقًا، فانصرفوا عنه وهم يحسبون أنه سيقف دون محمد وما يدعو إليه. ولكن الرسول الكريم ﷺ مضى فى طريقه يبلغ رسالة ربه غير عابئ بما تضعه الجاهلية من أشواك أمامه وأمام الذين اهتدوا بدعوته.

وذهب أشراف قريش مرة ثانية إلى أبى طالب واتسمت لهجتهم فى الحديث معه هذه المرة بالحدة والتهديد بالحرب إن لم يمنع ابن أخيه مما يقوم به.

واحتار الشيخ الوقور بين مشاعره نحو ابن أخيه وإحساسه بالانتماء

إلى قومه، ولم يجد خلاصًا مما هو فيه سوى أن يبعث إلى محمد وينهى إليه ما قاله زعماء قريش، ثم أردف هذا بقوله : أبق على نفسك وعلى ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. وما كاد أبو طالب يلفظ هذه العبارة فى هدوء يشوبه القلق حتى استولى على الرسول إحساس بأن عمه قد تخلى عنه ولم يعد قادرًا على نصرته، إلا أن هذا الإحساس بدده الإيمان الذى لا يغلب، فقال الرسول ﷺ لعمه تلك القولة التى أصبحت شعارًا للفداء وثبات اليقين : ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته. ويروى أن الرسول ﷺ بعد أن قال هذا بكى ثم قام منصرفًا، وكان الشيخ الوقور لا يتوقع من ابن أخيه ما كان منه ولكنه حين فوجئ بهذا الرد الحاسم وحين رأى تلك القطرات الطاهرة تسيل على خديه غلبت على أبى طالب مشاعر الأبوة الحانية، فنادى محمدًا ﷺ وقال له : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشىء أبدًا[1].

وعرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان ابن أخيه وأنه لن يحول بينه وبين تسفيه أحلام أهل مكة والنيل من آلهتهم، وهنا قرر قادة الشرك أن يختاروا فتى من أجمل فتيان قريش هو عمارة بن الوليد، وذهبوا به إلى أبى طالب وعرضوا عليه أن يتخذ عمارة ولدًا

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ١ ص٢٨٥

له ويسلم إليهم ابن أخيه ليفتكوا به، وجاء رد أبى طالب معبرًا أصدق تعبير عن سخافة ما عرضه سادة قريش عليه فقد قال لهم: والله لبئس ما تسوموننى أتعطوفى ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابنى تقتلونه هذا والله ما لايكون أبدًا[1].

وأيست قريش من أبى طالب وأيقنت أنه لن يتخلى عن ابن أخيه وأن عليها لكى تحمى وجدتها وآلهتها أن تقوم بعمل جديد ظنت أنه سيحقق ما تحرص عليه وهو القضاء على محمد ودعوته.

٣

وكان هذا العمل الذى ظنت قريش أنه سيضع حدًّا لهذا الداعى الجديد هو الإمعان فى تعذيب من آمن به واتبع رسالته وصبأ عن دين آبائه.

وكان المستضعفون والأرقاء يصب عليهم العذاب أضعاف ما يصب على سواهم، ولم ينج الرسول ﷺ نفسه من حماقة قريش وغطرستها وسوء فعالها،

وما حقق هذا لقريش ما ترجوه وتسعى جاهدة لبلوغه، وراعها أن أتباع محمد يزيدون كل يوم، وكان يفزعها أكثر أن تجد بعض

(١) المصدر السابق، وتسوموننى: تكلفوننى.

رجالات مكة يؤمن بالرسالة الخاتمة؛ لأن هذا يعنى أن قوة محمد ﷺ تنمو وأنه لو ترك هكذا فإن يومًا لابد آت فيه تفقد قريش كل ما تذود عنه من معبوداتها وأعرافها وتراث آبائها.

وفكر بعض سادة قريش أن يذهب إلى محمد ﷺ يكلمه ويعرض عليه ما رأى أنه قد يكفه عن المضى فى طريقه، وأثيرت الفكرة فى نادى قريش فرحب المشركون بها؛ لأن التعذيب لم ينجح فى وقف التيار عن اندفاعه، وقام عتبة بن ربيعة، وقال للرسول ﷺ بعد أن أشار إلى دعوته التى فرقت كلمة قريش وسفهت أحلامها وعابت آلهتها : يا بن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا، حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه.

وقال الرسول الكريم ﷺ بعد أن سمع هذا الذى عرضه عتبة : فاسمع منى، وقال عتبة افعل، فتلا محمد ﷺ من أول سورة فصلت إلى أن بلغ آية السجدة فسجد، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت وأنت وذاك.

---

(١) الرئى : ما يتراءى للإنسان من الجن.

وانصرف عتبة إلى أصحابه مأخوذًا بروعة القرآن وسمو فصاحته.

وما طلع عليهم حتى قال بعضهم نحلف بالله لقد جاءكم أبوالوليد بغير الوجه الذى ذهب به، ولما قال لهم: قد سمعت قولا والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة وطلب منهم أن يدعوا محمدًا وما هو فيه، قالوا له: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيى فيه فاصنعوا ما بدا لكم[1].

وهذا الموقف من قريش يدل على أن ظلام الوثنية قد ران على القلوب والعقول وصرفها عن أن تستجيب لدعوة الحق، وجعلها تخال أن مثل محمد ﷺ إنما يرجو بما يقوم به أن يحيا فى رغد من العيش أو منعة من السلطان. ولهذا لم تأبه لرأى عتبة ونصيحته، واتهمته بالضعف أمام سحر محمد، وأخذت تبحث عن وسيلة أخرى، تحارب بها الدعوة الجديدة، ودفعها تفكيرها القاصر وظنها الخاطئ إلى أن تطلب من الرسول حتى تؤمن به أن يُسيِّر عن قريش تلك الجبال التى ضيقت عليها الأرض وأن يشق لها الأنهار التى تذهب القيظ وتنشر الزرع وتدعو إلى الاستقرار وترك النزوح والهجرة طلبًا للماء والكلأ إلى غير هذا مما يدور فى فلك المستحيلات وخوارق العادات، وقد سجل الكتاب العزيز بعض ما طلبت قريش من الرسول لكى تسلم له بصدق دعوته وتذعن لما تأمر به رسالته.. ﴿وقالوا لن نؤمن

---

(١) محمد رسول الله صلى الله عليه للأستاذ محمد رضا ص١٠٩ ط ثانية.

لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط الماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابًا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولا﴾[1].

وهذه الآيات الكريمة تبرز بجلاء قصور إدراك هؤلاء المشركين، وتدل على تعنت ساذج منهم، وتبجح فى حق الذات الإلهية بلا أدب ولا تحرج. ولو كانوا حقًا يطلبون ما يقنعهم ليؤمنوا لالتمسوا فى القرآن وهو المعجزة الخارقة الباقية التى لم يستطيعوا أن يأتوا بمثله فى نظمه ومعناه ومنهجه - الدليل العقلى للإيمان الراسخ القوى، غير أن كفار مكة بتعنتهم وطفولتهم الفكرية لم يمعنوا النظر فى معجزة محمد الخالدة وعلقوا إيمانهم به بتحقيق تلك المقترحات التى لا يجمع بينها فى تصورهم سوى أنها خوارق، ونسوا أن الرسول بشر وأن الخوارق ليست من صنعه وليس من شأنه أن يطلبها من ربه، ولا يقترح على الله ولا يتزيد فيما كلفه إياه ﴿قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرًا رسولًا﴾ يقف عند حدود بشريته ويمنعه أدب الرسالة وإدراك حكمة الله فى تدبيره أن يقترح على ربه ما لم يصرح له به.

ولم يقف تعنت قريش عند هذا، ورغبت فى أن تطلب من

---

(١) الآيات ٩٠ - ٩٣ من سورة الإسراء.

أحبار اليهود أوصاف الرسول الذى تحدثت عنه التوراة، وذهب رجلان من مكة إلى المدينة ولقيا بعض أحبارها وتحدثا معهم فيما أوفدا من أجله، ثم عادا إلى مكة يحملان من أحبار المدينة ثلاثة اسئلة إن أجاب محمد عنها فهو نبي صادق. وكانت هذه الأسئلة عن أهل الكهف وذى القرنين والروح.

ونزل وحى السماء بالإجابة السديدة التى ترشد الإنسان إلى أن يلزم طاقاته العلمية وألا يخوض فيما ليس من أمره : ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾[1].

ولكن هل أذعنت قريش لما جاءها به محمد من عند ربه ؟ لا، لقد أسرفت فى حماقتها وطغيانها وعنادها، وضاعفت من تعذيب المؤمنين واضطهادهم إلى درجة أن أصبحت حياتهم فى مكة شقاء متصلاً وكان لا بد لهؤلاء المستضعفين من ملجأ ينقذهم من ضلال الجاهلية، فكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة.

٤

لقد قال الرسول لأصحابه : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكًا لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه.

---

(١) الآية : ٨٥ من سورة الإسراء.

وكانت بداية الهجرة إلى الحبشة فى شهر رجب من السنة الخامسة بعد البعثة.

ولم تترك قريش هؤلاء المهاجرين ينعمون فى جوار النجاشى بالأمن والحرية، وأرسلت إليه تطلب منه ردهم، إلا أنه بعد أن سمع مقالة رسل قريش وسمع من المهاجرين ما حملهم على الرحيل إليه لم يستجب لرغبة وفد مكة وعاش المسلمون فى كنف النجاشى عيشة طيبة لا يتعرضون لأذى أو اضطهاد.

وكان عدد الذين هاجروا قليلاً، ولم ينسوا نبيهم وموطنهم على الرغم مما كانوا فيه، ولذلك ما إن عرفوا أن المسلمين يزدادون قوة وأنهم يمكنهم أن يعيشوا فى مكة دون أن تقدر الجاهلية بصلفها وحمقها على أن تسىء إليهم أو تنال منهم، فقد أسلم من الرجال ما تهابه قريش وله بينها منزلة رفيعة وشأن مرموق حتى رجع بعضهم إلى مكة.

ولكن الجاهلية انطلقت مسعورة غير عابئة بمن أسلم من رجالاتها تسوم المؤمنين صنوف العذاب الأليم لا يردعها رادع من دين ولا يزجرها زاجر من خلق أو رحم.

وعاد بعض المؤمنين مرة ثانية إلى الحبشة وظلوا هناك حتى سمعوا بهجرة الرسول إلى المدينة فرجع بعضهم إلى مكة ولحق منهم من لحق بالرسول فى المدينة.

ورأت قريش أن كل محاولاتها المحمومة ضد الدعوة الوليدة باءت بالهزيمة ولم تنجح فى القضاء على محمد وأتباعه، وراعها أن أنصار الإسلام يزدادون كل يوم، وأنهم يجدون من يحقق لهم الأمن والقرار فى غير مكة، وفكر زعماؤها فى هذا الخطب الجلل، وضمهم مجلس تشاوروا فيه وانتهوا إلى قرار جائر شمل بنى هاشم وبنى المطلب جميعًا من آمن بمحمد ومن لم يؤمن به دون أن يكون ضالعًا مع أعداء محمد فى حربه حتى يسلموه لقريش فتقتله وتستريح منه.

٥

وكان هذا القرار الذى اتخذته قريش يقوم على مقاطعة كاملة لبنى هاشم وبنى المطلب، فلا يبايعونهم ولا يخالطونهم، ولا يتزوجون منهم ولا ينكحونهم، ولا يقبلون منهم صلحًا أبدًا. وكتبوا هذا القرار الظالم فى صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة فى سنة سبع من المبعث

وعاش النبى وأتباعه وأهله فى الشعب محصورين، مدة تبلغ نحو ثلاث سنوات قاسوا فيها من هذه المقاطعة ما قاسوا، وكانت أصوات الصبية تسمع من وراء الشعب بسبب الجوع والفاقة، وما نالت هذه المقاطعة من القلوب المؤمنة وإن كانت قد تركت آثارها على الأبشار المتغضنة والجسوم الهزيلة.

ثم تتابعت الأحداث بعد ذلك. مات أبو طالب فى السنة

العاشرة وبعد وفاته بثلاثة أيام ماتت السيدة خديجة رضى الله عنها.

وحزن الرسول حزنًا بالغًا لوفاة عمه وزوجه حتى سمى العام الذى ماتا فيه «بعام الحزن».

واشتد أذى قريش على الرسول بعد وفاة عمه وزوجه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى[1] الشاة وهو يصلى.

وخرج الرسول من مكة باحثًا عن أنصار وأتباع فى غيرها، لقد ضاق ذرعًا بقريش وكاد ييأس منها، وذهب إلى الطائف[2] ولما تندمل جراح الحزن على من كان مدافعًا عنه وحانيا عليه وباذلاً له من جاهه وماله ما يخفف تعنت قريش وحمقها واضطهادها له.

ذهب الرسول إلى الطائف ومعه مولاه زيد بن حارثة وعمد إلى جماعة من أشراف ثقيف ودعاهم إلى الإسلام، فسخروا منه وهزئوا به، وأغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع الناس عليه فى صورة كريهة تبعث على الأسى والألم، رسول رحيم تحمل من أجل إخراج قومه من الظلمات إلى النور كثيرًا من الآلام والمشقات، يحيط به الغوغاء والأرقاء والسفهاء يسبونه

---

(١) السلى: الغشاء الرقيق الذى يحيط بالجنين ويخرج معه من بطن أمه.

(٢) تقع الطائف جنوب شرق مكة وتبعد عنها بنحو ٧٥ كيلو مترًا والطريق إليها وعر ويخترق سلسلة من الجبال، وسواء ذهب الرسول ﷺ إليها راجلاً أو راكبًا فإنها رحلة مضنية لا يقدم عليها إلا ذوو العقائد الراسخة والعزائم القوية.

ويحصبونه ولا يجد أحدًا يحامى عنه، بل يجد دعاة الشر يحرضون على مضاعفة الإثم والمنكر، وكان الرسول يحاول أن ينأى عن هذا الجمع الذى تملكته حمى السخرية والإيذاء، إلا أنه كان إذا اتجه إلى طريق أو مكان هرعوا وراءه حتى وجد نفسه أخيرًا يدخل بستانًا فانصرفوا عنه وقد أدموه وأرهقوه كل إرهاق.

إنها مطاردة مؤلمة قاسية تعرض لها إنسان رحيم يحمل بين جنبيه قلبًا يفيض بالعطف على قومه والحرص على هدايتهم بالرغم مما ناله على أيديهم من عنت واضطهاد وصدق الله العظيم ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾[1].

وليس أدل على حماقة أهل الطائف ومبلغ قسوتهم وإيذائهم للرسول من أنه عليه السلام ظل يذكر ما لاقاه فى تلك المدينة ويعد يومه فيها من أشد الأيام إيذاء له، فقد روى عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم أشد من أحد[2]؟ قال: لقيت من قومى ما كان أشد.

(١) الآية ١٢٨ فى سورة التوبة.

(٢) فى أحد كما هو معروف كسرت رباعية الرسول، وهى السن التى بين الثنية والناب، وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه، وأصيبت ركبتاه، فضلاً عن استشهاد من استشهد فى هذه الغزوة وعلى رأسهم حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم.

(انظر إمتاع الأسماع للمقريزى ج ١ ص ١٣٥).

قال : وكان أشد ما لقيت منهم يوم ثقيف، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبنى إلى ما أردت، فانطلقت على وجهى وأنا مغموم، فلم أستفق إلا وأنا بقرن[1] الثعالب فرفعت رأسى، فإذا أنا بسحابة قد أظلتنى، فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعثت إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادانى ملك الجبال فسلم على وقال : يا محمد، أنا ملك الجبال قد بعثنى ربى إليك لتأمرنى بما شئت، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين[2]، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا[3].

ما أعظم رحمتك بقومك يا رسول الله وما أشد حرصك على ما ينفعهم فى دنياهم وأخراهم، لقد آذوك واضطهدوك. ولكنك تعلم أنهم على ضلال فأغضيت عن سفههم ولم تشأ أن ينزل العقاب المدمر بهم ورجوت الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده، ولا غرو أن كنت رسول الإنسانية كافة، وأن كنت المثل الكامل والقدوة الحسنة وأن يثنى عليك الله فى كتابه العزيز بما أنت أهل له : ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾[4].

---

(١) موضع تلقاء مكة على مرحلتين منها.

(٢) الأخشبان : جبلان بمكة.

(٣) الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ص ٩٨. ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٤) سورة القلم الآية : ٤.

٦

ولم يستطع الرسول ﷺ دخول مكة بعد تركه الطائف حزينًا إلا فى جوار المطعم بن عدى، فالجاهلية فى تلك المدينة قد اهتبلت تلك الأحداث التى ألمت بالرسول فأدخلت على قلبه الحزن الشديد - مات عمه وزوجه، ولقى من ثقيف ما لم يتوقعه - وأخذت تصب العذاب على كل من آمن به وتفكر جديًا فى قتله، فكان دخوله مكة بعد رحلة الطائف محفوفًا بالمخاطر الجسيمة وكان الجوار ضروريًا لتجنبها حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً.

وفاجأ الرسول ﷺ قريشًا بحديث الإسراء والمعراج فما أذعنت ولكنها أمعنت فى ضلالها وشركها، ولكن الرسول مع كل ما واجه من صعوبات واعترض طريقه من أشواك وعقبات لم يسيطر القنوط عليه، ولم تزده الشدائد إلا ثباتًا فى اليقين ومضاء فى العزيمة وأملاً دانيا فى النصر والخير.

لقد كان الرسول منذ أمر بالجهر بالدعوة يحدث القبائل التى تفد إلى مكة فى كل موسم من مواسمها، غير أنه كان يقابل بالإعراض والنفور وكانت حجة هؤلاء: «قوم الرجل أعلم به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه؟ وهى حجة داحضة وكان المنطق يقضى بالنظر فيما يدعوهم إليه دون أن يكون موقف قومه منه دليلاً

لازورارهم عنه وتكذيبهم له.

وخرج الرسول فى موسم الحج بعد رحلة الطائف يعرض نفسه على القبائل كما هى عادته، فلقى عند العقبة[1] ستة نفر من الأنصار كلهم من الخزرج فدعاهم الرسول إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فهفت قلوبهم إليه، وكان لما قالته اليهود فى المدينة عن النبى الذى قد أظل زمانه أثر فى استجابتهم لما دعاهم إليه، وكان مما قاله بعضهم لبعض: هذا والله الذى تهددكم به يهود، فلا يسبقونا إليه، فأسلموا به وبايعوا[2].

وكان هؤلاء النفر الذين هداهم الله إلى الإسلام، هم دعاة محمدﷺ فى يثرب، وفشى بين الأنصار خبر الدعوة الجديدة وتلهفت الأفئدة للقاء الرسول، فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً منهم خمسة من الذين لقوا الرسول فى العام المنصرم، فأسلموا وبايعوا، وكانت بيعتهم عمادها وحدانية الله والبعد عن المعاصى، ولذا تسمى بيعة النساء؛ لأنها لم تكن على القتال.

وهدى الله بعد هذا إلى الإسلام من أهل يثرب من هدى، وكثر اتباع محمد ﷺ وأنصاره فى هذه المدينة، وتضاعف لهف القلوب على لقاء الرسول ورؤيته، فلما كان موسم الحج التالى خرج جماعة من الأنصار للقاء النبى صلى الله عليه وسلم مستخفين لا يشعر بهم

(١) موضع على يسار الطريق القاصد منى من مكة.

(٢) الدرر ص ٧١.

أحد، ولقيهم الرسول ليلاً عند العقبة، وكانت مبايعة هؤلاء الرسول على الإيمان والنصرة، أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم ونساءهم وأبناءهم، وأن يرحل إليهم هو وأصحابه[1]. وكان جملة من بايع الرسول فى هذه المرة سبعين رجلاً وامرأتين.

وكانت قريش قد عرفت بإسلام بعض الأنصار وأدركت أن محمدًا قد وجد لدعوته تربة تستجيب لها وتحتضنها، فبالغت فى إيذاء من آمن من أهل مكة، فأمرهم الرسول بالهجرة إلى المدينة، فخرجوا أرسالاً إليها، وتحركت الجاهلية بسرعة وائتمرت فى ناديها لتطفئ النور الذى جاء يهدى للتى هى أقوم، لقد أرادت أن تقتل الرسول ﷺ واتخذت لذلك خطة تجعل الدم الزكى مفرقًا بين القبائل فلا يقدر أحد على المطالبة به أو الثأر له ولكن الله العلى القدير حفظ نبيه من مكر الجاهلية لينتشر الضياء، وتتحطم الأصنام ولو كره الكافرون ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾[2].

* * *

(١) المرجع السابق ص ٧٤.

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٤.

أسباب الهجرة

يتضح مما أسلفت فى الحديث عن مراحل الدعوة قبل الهجرة أن أسبابها كلها ترجع إلى موقف قريش من الدعوة الجديدة وإسرافها البالغ فى تعذيب من آمن بها وإقدامها فى إصرار وعزم على قتل الرسول ما دامت كل الوسائل التى لجأت إليها للحيلولة بين محمد وبين ما يدعو إليه قد باءت بالهزيمة.

إن عقلية الجاهلية التى أخلدت إلى مواريث الآباء وتقديس الأصنام والأوثان واجهت دعوة التوحيد والوحدة فى جمود وصلف، لم تحاول أن تنظر إليها نظرة تدبر مخلص وموازنة واعية بين ما تعكف عليه من معبودات لا تملك لها نفعًا ولا ضرًّا وتقاليد فاسدة وأخلاق منحلة، وما جاء به محمد من عبادة إله واحد لا شريك له، ربُّ كل شيء وخالق كل شيء، بيده الأمر كله وإليه المآب، وما جاء به كذلك من نظم إنسانية تهذب السلوك وتوثق بين الناس روابط المحبة والإخاء وتجعل المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا، فضلاً عن معجزته الخالدة التى أفحمت العرب وهم فرسان القول وأرباب

البيان، لقد أخذوا ببلاغة القرآن وروعة أسلوبه وكان صناديدهم يخرجون فى جوف الليل ليسمعوا آيات الله يتلوها محمد، وكانوا يفعلون ذلك حتى لا يراهم عامة أهل مكة، ومن عجب أن هؤلاء؛ السادة كل منهم لا يخبر أخاه بما يفعله، ولا يجد لديه الشجاعة فى الاعتراف بما يقوم به، وفى إحدى الليالى أبصر بعضهم بعضًا وكان بينهم حديث ينم عن حبهم لهذا القرآن المجيد، ولكن عصبية الجاهلية سولت لهم أن يناوئوا محمدًا ودعوته، وتجلت هذه المناوأة فى ذلك الصلف الأحمق الذى اتخذ الاضطهاد والتعذيب بلا رحمة سبيلاً لمنع انتشار الإسلام وحمل هؤلاء الذين اهتدوا وآمنوا على الكفر بمحمد والبعد عنه.

لقد أسرفت الجاهلية فى ضلالها وإجرامها حتى أصبحت مكة بالنسبة لمحمد ومن آمن به بلد الهوان والحرمان، وتأكد أن سادتها قد أصروا على الشرك إصرارًا وأن البقاء بينهم لن يثمر غير مزيد من الطغيان يقع على هؤلاء الضعفاء والذين نبذوا عقائد الأجداد والآباء واعتصموا بالحق، واستمسكوا بعروة الإيمان الصحيح.

وكانت مكة مع هذا من أحب بلاد الله إلى رسوله وأصحابه، وقد روى أن الرسول ﷺ بعد أن خرج ليلاً من مكة قال: والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله، وأحب بلاد الله إلى، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت.

غير أن حب الله وحب نصرة دينه وتبليغ دعوته أقوى مما عداه من حب الأهل والوطن والمال والجاه والسلطان.

إن عقيدة الإيمان إذا عمرت قلبًا أصبح لا يشغله فى هذه الحياة سوى الانتصار لهذه العقيدة بكل وسيلة حتى ولو كانت الحياة نفسها، وما حققت البشرية فى تاريخها كله انتصاراتها المختلفة إلا عن طريق عقيدة راسخة بصرف النظر عن لون هذه العقيدة وقيمها.

وطوعًا لمنهج القرآن الكريم فى إيثار الإجمال والإيجاز فى أغلب الشأن أشارت بعض الآيات الكريمة إلى أسباب الهجرة إشارات تعتمد على اللفظة الموحية والكلمة الجامعة.

ويجدر القول قبل الحديث عن تلك الإشارات بأن القرآن الكريم فى الفترة المكية - وهى فترة بلغت ثلاث عشرة سنة - نزل منه أكثر من[1] نصفه، ولم يشتمل ما نزل فى هذه الفترة على كثير من التشريع الفقهى، فقد كان المقصود مما نزل هو الدعوة إلى الله وتوحيده، ونبذ ما كان يعبد الناس قبل الإسلام من مختلف المعبودات، وإقامة الأدلة على ذلك، وعلى وجود الدار الأخرى، وتسلية الرسول فيما كان يلقاه فى سبيل الدعوة بضرب الأمثال له بقصص أسلافه من الرسل والأنبياء، أما التشريعات الفقهية التفصيلية فقد نزل الجانب الأكبر

---

(١) جاء فى تاريخ التشريع الإسلامى للمرحوم الشيخ الخضرى ص ٨ أن مكى القرآن نحو $\frac{١٩}{٣٠}$ منه، وأن مدنيه $\frac{١١}{٣٠}$.

منها فى السور المدنية، وهى بالنسبة لمجموع القرآن أكثر من الثلث بقليل.

* * *

بعد هذه الكلمة الخاطفة عن موقف القرآن من المشركين قبل الهجرة، أشير إلى بعض تلك الآيات التى عبرت فى إجمال وشمول عن الأسباب التى حملت المؤمنين برسالة الإسلام على أن يفروا إلى الله بدينهم تاركين وراءهم ذكريات الطفولة وملاعب الصبا، وكل ما لهم فى مكة.

تتحدث الآية ١٩٥ من سورة آل عمران عن المهاجرين فتقول: ﴿.. فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى﴾ فبناء الفعل للمجهول فى أخرجوا يدل على أن المسلمين أجبروا[1] على الخروج من ديارهم، أجبرهم الظلم والإثم والكفران والطغيان.

وورد هذا الفعل بصيغة المبنى للمجهول فى الآية الثامنة من سورة الحشر للدلالة على المعنى نفسه: ﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم...﴾.

---

(١) يرى عالم تونس الشيخ الطاهر بن عاشور أن المؤمنين هاجروا اختيارًا (انظر مجلة هدى الإسلام العدد ١٨ ص ٢١) وهذا صحيح بمعنى أن قريشًا لم تأمرهم بترك مكة بل كانت حريصة على بقائهم فيها حتى لا ينقلبوا عليها بعد ذلك ويأخذوا حقهم منها، ويقضوا على أصنامها وتراث آبائها، ولكن موقف قريش الجائر هو الذى حمل هؤلاء المؤمنين على الهجرة، ومن ثم فهم وإن هاجروا اختيارًا فى الظاهر إلا أنهم فى الواقع أكرهوا وأجبروا على ترك مكة.

وفى سورة النحل جاء فى الآية ٤١ : ﴿والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا..﴾ فالمهاجرون ظلموا قبل هجرتهم، ظلمهم المشركون ظلمًا متعدد الدرجات، متنوع الأشكال. بيد أن الآية لم تفصل أنواع الظلم وكيف وقع على هؤلاء المجاهدين الصابرين، وهى بهذا أشمل فى الدلالة وأبلغ فى المعنى، وأوقع فى النفس وأعمق فى الحس.

وأما الآية ١١٠ فى سورة النحل أيضًا : ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا﴾ فتتحدث عن فتنة المهاجرين قبل هجرتهم، وللمفسرين فى بيان معنى الفتنة المذكورة فى الآية آراء مختلفة[1]، بعضها يذهب إلى أنها العذاب بقصد الردة، وبعضها الآخر يذهب إلى أن بعض المسلمين أعطى الكفار ما أرادوا بلسانه مكرهًا فكأنهم بذلك قد فتنوا أنفسهم، مثل ما روى عن تعذيب عمار بن ياسر، فقد شدد الكفار عليه العذاب ومن ذلك أنهم كانوا يطرحونه على الأرض فى الظهيرة أيام القيظ - وحر مكة يذيب ذنب الضب كما يقولون - وأحيانًا مع هذا يضعون الصخر على صدره، ويقولون له لا نتركك حتى تسب محمدًا وتقول فى اللات والعزى خيرًا، ففعل مرة فتركوه - ولعله لم يفعل ما أراده الكفار إلا بعد أن أشفى على الهلاك - ولكنه انطلق إلى النبى صلى الله عليه وسلم

(١) انظر تفسير القرطبى جـ ١٠ ص ١٨٠، ١٩٢، والألوسى جـ ٤ ص ٤٤٨ ط بولاق.

باكيًا، فقال له الرسول : ما وراءك ؟ فقال عمار : شر يا رسول الله، وحكى له ما صدر عنه، فقال له الرسول : كيف تجد قلبك ؟ قال : أجده مطمئنا بالإيمان، فقال : يا عمار إن عادوا فعد، فأنزل الله تعالى : ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

ومهما تباينت الآراء فى تفسير معنى الفتنة فهى تدور فى فلك الاضطهاد والأذى الذى صبه المشركون على المؤمنين.

وكان أذى المشركين يتخذ أحيانًا صورًا من السخرية والاستهزاء والادعاء، وقد ذكر الكتاب العزيز طرفًا من هذا الأسلوب الذى تجرد من الخلق والتهذيب واتسم بالوقاحة والتطاول وسوء الأدب : ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون. وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين. وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون. وما أرسلوا عليهم حافظين﴾[1].

فهؤلاء الطغاة لم يكتفوا بما كان منهم من تعذيب واضطهاد لمحمد وأصحابه، ولكنهم فى فجورهم وإجرامهم لا يقفون عند حد، فهم كما أشارت الآيات الكريمة يضحكون من الذين آمنوا استهزاء بهم وسخرية منهم؛ إما لفقرهم ورثاثة حالهم، وإما لضعفهم عن رد الأذى، وإما لترفعهم عن سفاهة السفهاء، فكل هذا مما يثير ضحك الذين أجرموا، وهم يتخذون المؤمنين مادة لسخريتهم أو فكاهتهم

(١) الآيات. ٢٩ - ٣٣، من سورة المطففين.

المرذولة، وهم يسلطون عليهم الأذى، ثم يضحكون الضحك اللئيم الوضيع مما يصيب الذين آمنوا وهم صابرون مترفعون متجملون بأدب المؤمنين.

وكان هؤلاء المجرمون والأوغاد يتغامزون على المؤمنين بالعين أو باليد أو بحركة ما متعارفة بينهم للسخرية والإيذاء، يريدون بذلك أن يدخلوا على قلوب المؤمنين الذلة والمهانة والانكسار.

وإذا انقلب هؤلاء الأوغاد إلى أهليهم بعد أن نالوا من المؤمنين ما نالوا من السخرية والإيذاء، انقلبوا فكهين، راضين عن أنفسهم، فرحين بما فعلوا مستمتعين به فلم يتلوموا ولم يندموا، ولم يشعروا بحقارة ما صنعوا وقذارة ما فعلوا، وهذا منتهى ما تصل إليه النفس من إسفاف وموت للضمير.

ومن عجب أن يتحدث هؤلاء المجرمون عن الهدى والضلال، وأن يقولوا حين يرون المؤمنين: ﴿إن هؤلاء لضالون﴾ ولكنه الفجور والادعاء والتطاول لا يقف عند حد ولا يستحى من قول، ولا يتلوم من فعل.

ويسخر القرآن بعد هذه الإشارات إلى مواقف الإجرام الوضيعة من هؤلاء الذين يدسون أنوفهم فيما ليس من شأنهم، ويتطفلون بلا دعوة من أحد فى هذا الأمر - فما وكلوا بشأن هؤلاء المؤمنين وما أقيموا عليهم رقباء، ولا كلفوا وزنهم وتقديرهم: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾.

وتنتقل الآيات إلى الحديث عن مشهد آخر، مشهد الذين آمنوا يوم القيامة مع الكفار: ﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون﴾ اليوم يجازى المؤمنون بالنعيم المقيم، والكافرون بنار الجحيم، اليوم يضحك الذين آمنوا من الذين أشركوا، ثم يتوجه القرآن بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل: ﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ هل وجد هؤلاء الجاحدون المكابرون ثواب ما فعلوا إنهم يقاسون العذاب الأليم فى نار الجحيم، وهذا جزاء ما فعلوا، فهو ثوابهم، إذن، غير أن التعبير بكلمة ثواب فى هذا المقام فيه من السخرية ما فيه بهؤلاء الكفار.

وسجل القرآن الكريم فى آيات كثيرة بعض مواقف قريش من الرسول ﷺ، وأشار إلى ما كان يشعر به النبى من ألم نفسى حاد لأن قومه فى غيهم وضلالهم يعمهون، وهو حريص أشد الحرص على أن يأخذ بأيديهم إلى سواء السبيل.

لقد سخروا منه وتوعدوه بالهلاك حين ناداهم وأخبرهم بأنه رسول من الله إليهم، ثم أمعنوا بعد ذلك فى سخريتهم وتهكمهم وإيذائهم، فهو كما يزعمون ليس أهلاً لهذا الفضل الذى أسبغه الله عليه، ﴿وقالوا: لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾، وما دروا أن الله يختار لوحيه ما يشاء وأنه سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته وأن مراتب الناس لديه لا تخضع لأعراف الناس

ومقاييسهم من الجاه والمال: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ولجأ المشركون إلى اتهام الرسول بالكهانة والسحر وأن الذى يأتيه شيطان من الجن لا ملك من السماء، وحاولوا إعناته وإحراجه بما طلبوا منه من أمور تدخل فى باب الخوارق والمستحيلات، وقالوا عن القرآن: ﴿أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلاً﴾، إلى غير ذلك من الأقوال والأفعال التى أحزنت الرسول أشد الحزن، فقومه ينفرون منه ويتقولون عليه وهو يدرك مبلغ ماهم فيه من ضلالة، ويرجو لهم أن يسلكوا طريق الهداية، لقد كان حريصًا كل الحرص على أن يعتصم قومه بما يدعوهم إليه، ومن ثم كان حزنه الشديد لما صدر عنهم من أقوال وأفعال.

وأشار القرآن الكريم إلى مشاعر الرسول الانسان ﷺ، وإلى تلك السنة التى لا تتخلف مع الأنبياء والمرسلين سنة الجحود والتكذيب والإيذاء، وإلى أن يتأسى محمد بمن بعث قبله من المرسلين فى الصبر والإغضاء: ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون، فإنهم لا يكذبونك، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون. ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين﴾[1]. ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾[2].

(١) الآيتان: ٣٣، ٣٤، فى سورة الأنعام.

(٢) الآية: ٣٥ فى سورة الأحقاف.

وحين بان لقريش أن أتباع محمد قد أخذوا يفرون من مكة ويذهبون إلى يثرب، هالها الأمر وأفزعها، وأيقنت أنها إن لم تتخذ موقفًا حاسما من محمد فإن حياتها ستتعرض لخطر جسيم يهدد أمنها ووجودها.

إن الأنصار فى يثرب أهل حرب فإذا انضم إليهم هؤلاء المؤمنون الصابرون وعلى رأسهم محمد فإنهم سيعملون لا محالة على غزو قريش والانتقام منها، أو على الأقل سيقطعون عليها طريق تجارتها إلى الشام، وهى شريان وجودها فلا حياة لها بدونها.

وكان المؤمنون فى مكة يتسللون إلى إخوانهم الأنصار وعجزت قريش عن صدهم والحيلولة بينهم وبين ما يرغبون فيه ويشتاقون إليه، ولكن محمدًا ما زال بين أظهرها فهل تتركه ليلحق بأتباعه لتقع الكارثة التى لا قبل لها بدفعها.

إن الأمر جلل والخطب جسيم ولابد من اجتماع عاجل يضم السادة ليتشاوروا فيما يجب أن يقوموا به نحو محمد حتى لا يكون لقريش بعد ذلك إلا الخزى والعار والفقر.

وغدوا إلى دار الندوة وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون، ووقف أبو البخترى بن هاشم فقال: احبسوه فى الحديد وأغلقوا عليه بابًا ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين قبله، زهير والنابغة ومن مضى منهم من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم.

ولم يلق هذا الرأى قبولاً أو استحسانًا ورد عليه من قال : لئن حبستموه ليخرجن أمره من وراء الباب الذى أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ماهذا لكم برأى فانظروا فى غيره.

واقتنع المجلس بهذا القول، وأيقن أن رأى أبى البخترى فاسد، فوقف أبو الأسود ربيعة بن عامر وقال : الرأى عندى أن نخرجه من بين أظهرنا فننفيه، فإذا خرج عنا - فوالله ما ندرى أين ذهب، ولا حيث وقع إذا غاب عنا وفرغنا منه - أصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت.

ولم يلق هذا الرأى كسابقه قبولاً، وأكد فساده وسخفه ما قاله بعض المؤتمرين : ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتى به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم فى بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأيا غير هذا.

وهنا يقول أبو الحكم بن هشام : والله إن لى فيه رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد، أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا جليدًا نسيبًا وسيطًا[1] فينا، ثم نعطى كل فتى سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه

(١) جليدًا : قويًا، نسيبًا : شريفًا ذا حسب معروف، وسيطًا : يقال هو وسيط فيهم : اوسطهم نسبًا وارفعهم مجدًا.

فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعًا، فلا يقدر بنو عبدمناف - رهط محمد - على حرب قومهم جميعًا، فرضوا منا بالعقل[1] فعقلنا لهم.

وخلب هذا الرأى لب المجلس، وارتضوه، وتواصوا بسريته، وتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون على تنفيذ ما ارتآه أبو الحكم ابن هشام[2].

ولكن الله الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء أخبر نبيه بما كان من قريش فى دار الندوة، ونزلت على الرسول بعد ذلك آية قصيرة[3] تعبر أبلغ تعبير عن تآمر سادة قريش وترسم صورة عميقة التأثير لذلك المكر والتدبير الذى أطبقت عليه كلمة المؤتمرين، وما علموا أن الله من ورائهم محيط يمكر بهم ويبطل كيدهم، وهم لا يشعرون ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك[4] أو

---

(١) العقل : الدية.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٩، ومجلة الثقافة العدد ٥٩.

(٣) نزلت هذه الآية فى المدينة بعد غزوة بدر، ولم تنزل عقب ندوة قريش كما يرى بعض المفسرين، وكان نزولها بعد هذه الغزوة تذكيرًا بما كان من خوف وقلق فى الماضى وما عليه الرسول فى الحاضر من أمن وطمأنينة.

(انظر تفسير المنار جـ ٩ ص ٦٥٢، وتفسير سورة الأنفال للأستاذ الدكتور مصطفى زيد ص ١٢٤ ط. الرابعة).

(٤) أى ليحبسوك أو يوثقوك.

يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾[1]. لقد ائتمرت قريش هذه المرة على أن تتخلص من الرسول بحبسه أو قتله أو إخراجه مغلوبًا على أمره، .واختارت القتل على أن يتولى ذلك الإثم فتية من القبائل جميعًا ليتفرق دمه فيها، ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوا بالدية، وينتهى الأمر.

وعبرت الآية الكريمة عن موقف قريش فى دار الندوة بالمكر، كما عبرت عن إحباط الله لما كان من قريش بالمكر أيضًا والله خير الماكرين.

ولما كان المكر فى معناه[2] اللغوى يدل على تدبير الشر للغير فى خفية، والاحتيال لإيقاع الأذى به[3]، فقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن إضافة المكر إلى الله سبحانه جاء على طريق المشاكلة فى اللفظ ومزاوجة الكلام[4]، كما قال سبحانه : ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾، والثانى ليس باعتداء، وإنما هو جزاء[5].

إن المكر قبيح والله تعالى لا يتصف إلا بكل كمال وإنما جاز فى تلك الآية - فى رأى الجمهور - وصفه سبحانه بالمكر ليقابل

---

(١) الآية : ٣٠ فى سورة الأنفال.

(٢) انظر معجم ألفاظ القرآن جـ٦ ص : ٤٥ إخراج مجمع اللغة العربية.

(٣) المرجع السابق.

(٤) تفسير البحر المحيط جـ٢ ص : ٤٧٢.

(٥) مجمع البيان فى تفسير القرآن - المجلد الأول - ص : ٤٤٩.

مكر الناس، فهى مشاكلة لفظية ووجه من وجوه البلاغة فى القرآن الكريم.

ومع تقدير هذا الرأى فإن مادة «مكر» فى الكتاب العزيز قد وردت فى أكثر من أربعين موضعًا، وإن كان أكثر ورودها جاء فى معرض الحديث عن مكر الكفار بالرسل، إلا أنه فى بعض الآيات ورد المكر مضافًا إلى الله سبحانه من غير مقابلة بمكر الناس ﴿أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾[1].

كما نعت المكر فى آية أخرى بما يفيد أنه ليس دائمًا قبيحًا أو مكروهًا ﴿استكبارًا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾[2] فهذا يعطى أن من المكر ما قد يكون حسنًا وليس بلازم أن يكون أبدًا سيئًا..

وجاء فى كتاب «بصائر ذوى التمييز[3] فى لطائف الكتاب العزيز» للفيروزابادى صاحب القاموس أن المكر ضربان: محمود، «وهو ما يتحرى به أمر جميل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ومكر الله والله خير الماكرين﴾، ومذموم، وهو ما يتحرى به فعل ذميم نحو قوله تعالى: ﴿ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله﴾.

ولهذا كله فإن المشاكلة اللفظية التى ذهب إليها الجمهور لنفى

---

(١) الآية: ٩٩ فى سورة الأعراف.

(٢) الآية: ٤٣ فى سورة فاطر.

(٣) جـ ٤ ص: ٥١٦ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

فعل القبيح عن الله سبحانه إن جاز قبولها فى تلك الآيات التى ورد فيها مكر الله فى مقابلة مكر الناس فإنه لا يمكن قبولها فى تلك الآيات التى لم يرد فيها المكر على صورة المقابلة ويكون تفسير صاحب القاموس أولى بالأخذ والقبول.

إن الله تبارك وتعالى رحيم بعباده ومن رحمته بهم أن يحول بينهم وبين ما يقدمون عليه من شر ومنكر، وهؤلاء الطغاة الذين دبروا ومكروا قد أبطل الله مكرهم وكيدهم لتبدأ البشرية عهدًا جديدًا فى تاريخها وحياتها عهدًا يتسم بالحرية والكرامة والعلم، وهذا فضل من الله عظيم.

فى الطريق إلى المدينة

١

فى السنة التاسعة بعد الهجرة بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم قد جمعت له جموعًا كثيرة على أطراف الجزيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة وانضمت إليه لخم وجذام وغسان وعاملة من قبائل العرب، وزحفوا وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها[1].

ويبدو أن هؤلاء لما علموا بفتح مكة، وما تلاه من بعض الغزوات والسرايا، أيقنوا أن جيوش محمد ستدهمهم فى ديارهم إن عاجلا أو آجلا، فأرادوا أن يهاجموه قبل أن يهاجمهم، ويقضوا عليه قبل أن يقضى عليهم، لذلك أعدوا عدتهم وجمعوا جموعهم، وزحفوا ليلقوا محمدًا وأصحابه أولئك الذين أصبحت لهم فى الجزيرة منزلة السيادة والقيادة.

---

(١) إمتاع الأسماع للمقريزى جـ١، ص: ٤٤٦، والبلقاء كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادى القرى (معجم البلدان - المجلد الأول، ص٤٨٩ ط بيروت) وهى الآن المنطقة الشمالية الغربية من الأردن.

واستنفر الرسول الناس إلى الجهاد، وحضهم عليه وكان عليه السلام قلما يغزو غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب، بيد أنه فى هذه الغزوة - غزوة تبوك - صرح بها للناس لبعد الشقة بينه وبين عدوه، ولقوة هذا العدو وكثرته، ولشدة الحر وقلة الأموال فى الأيدى فقد كان العام عام جدب[1]، ومن ثم تسمى هذه الغزوة غزوة العسرة أيضًا، وهى آخر غزوة غزاها محمد صلى الله عليه وسلم.

ولهذا كله انطلق المنافقون، ومن فى قلوبهم مرض للتعبير عن أحقادهم وخبث ضمائرهم، فالفرصة أمامهم - كما يظنون - مواتية لضرب الإسلام ضربة قاصمة وتعريض محمد ومن يخرج معه لحرب الروم لخطر لا قبل لهم به، فتدور الدائرة عليهم، وهذا غاية ما يطمع فيه النفاق، لقد أخذ المنافقون يخذلون الناس ويقولون لهم لا تنفروا فى الحر، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة فعدوكم هذه المرة من نوع آخر فى الكر والفر والعدد والعدة، وذهب بعضهم إلى الرسول يستأذنه فى التخلف لأعذار واهية، فقبلها منهم وأذن لهم، وهؤلاء كانوا يبغون من هذا أن يكونوا لسواهم قدوة فى القعود، وقد نجح المنافقون بعض النجاح فى كيدهم وحقدهم فتخلف عدد من المؤمنين، وكادت تزيغ قلوب فريق من الأنصار والمهاجرين، لولا

---

(١) الدرر فى اختصار المغازى والسير، ص: ٢٥٢.

فضل الله ورحمته بهم، ومع هذا فصل الرسول عن المدينة بجيش عظيم، ليلقى به الروم فى تبوك[1].

٢

ولست هنا فى مجال الحديث عن هذه الغزوة، وكيف أبلى المؤمنون فيها بلاء حسنًا فأضافو إلى سجل جهادهم صفحة مشرقة بالبذل والفداء، ولكنى أردت بهذا أن أقول إن الله تبارك وتعالى حين كشف أمر هؤلاء المنافقين فى سورة التوبة، وبين لهم أنه سبحانه ينصر أولياءه وإن تمالأ عليهم الأعداء، وكاد لهم المنافقون - ذكر لهم حادثة الهجرة فهى أبرز مثل على نصر الله لأنبيائه وأوليائه ﴿إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم﴾[2].

وهذه الآية الكريمة فضلا عن أنها تقرر نصر الله لرسوله فى ظروف تجمع فيها لعدوه كل ما يعرف الناس حينئذ من أسباب الغلبة دون أن يجتمع له منها سبب واحد تكاد بأسلوبها المعجز تتحدث فى

---

(١) تبوك - مكان بين المدينة ودمشق، ويبعد عن المدينة بنحو ٦٠٠ كيلومتر.

(٢) الآية : ٤٠ فى سورة التوبة.

إجمال عن طرف من أحداث الهجرة : فهى قد أشارت إلى أن الرسول قد أخرجه قومه بعد أن يئس منهم، وبعد أن أحالوا مكة كلها وما يحيط بها من بطاح وهضاب ميدانًا لمعركة رهيبة تطلب دم النبي عليه السلام، وليس معه من الأعوان سوى رجل واحد أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين.

لقد قررت قريش أن تتخلص من الرسول ﷺ، فأطلعه الله على ما ائتمرت، وأوحى إليه بالخروج وحيدًا إلا من صاحبه الصديق لا جيش ولا عدة، وأعداؤه كثرة وقوتهم إلى قوته ظاهرة.

ويخرج الرسول ﷺ فى جنح الليل مع صاحبه ويأويان إلى الغار والقوم على أثرهما يتعقبون والصديق - رضى الله عنه - يجزع لا على نفسه ولكن على صاحبه - أن يطلعوا عليهما، فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب يقول : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، ويرد الرسول وقد أنزل الله سكينته على قلبه، يهدئ من روع صاحبه «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»، ﴿إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾.

وكانت العاقبة - والقوة المادية كلها فى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم مع صاحبه منها مجرد - النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس، وكانت الهزيمة للذين بغوا وكفروا ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا﴾.

وللمفسرين[1] فى بيان المعنى بالسكينة التى أنزلها الله، وكذلك فى المقصود بالجنود التى أيد بها، آراء لا تخلو من الإسراف وتجاوز القصد فى الشرح والتأويل، فمنهم من ذهب إلى أن أبا بكر رضى الله عنه هو الذى أنزل الله سكينته عليه، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن جزعًا ولا مضطربًا، فهو واثق من نصر الله بدليل ما جاء فى الآية من قوله لصاحبه: ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾.

وذهب آخرون إلى أن الله سبحانه أنزل سكينته على نبيه ﷺ، وليس بلازم أن يقتضى إنزال السكينة على الرسول أن يكون خائفًا أو منزعجًا، وقوى هؤلاء رأيهم بأن التأييد بالجنود لا يصح إلا للنبى صلى الله عليه وسلم، وأن عطف جملة ﴿وأيده بجنود لم تروها﴾ على ما قبلها يؤكد أن المقصود بالجملة المعطوف عليها وهى ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ هو الرسول ﷺ وليس صاحبه، فالأصل فى هذا العطف الترابط والتعانق لا التفكك والتفرق..

والذى أرجحه أن الضمير فى قوله تعالى: ﴿فأنزل الله سكينته عليه﴾ يعود إلى النبى صلى الله عليه وسلم، فالآية كلها جاءت فى

---

(1) انظر تفسير القرطبى جـ8 ص: 148، وتفسير الآلوسى جـ3 ص308 ط بولاق، وتفسير المنار جـ1 ص: 429، والسكينة هى الهدوء وطمأنينة القلب وخشوعه، أو الوقار والسكون الذى ينزله الله فى قلب عبده عند اضطرابه من شدة المخاوف، فلا ينزعج بعد ذلك لما يرد عليه، ويوجب له زيادة الإيمان، وقوة اليقين والثبات.

(انظر بصائر ذوى التمييز جـ3 ص: 238).

معرض الحديث عن حماية الله ونصره لنبيه، فكل الضمائر الواردة بها ترجع إلى الرسول الكريم ﷺ لا إلى أحد سواه.

ويرى كثير من المفسرين أن الجنود التى أيد الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم هى الملائكة الذين ستروه هو وصاحبه من أعين الكفار عندما خرجا ليلا من مكة، وعندما لجآ إلى الغار يقيمان فيه حتى يسكن الطلب عنهما، ولكن قصر معنى الجنود فى الآية على الملائكة غير سديد. لأن جنود الله قد تكون ملائكة، وغير ملائكة، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

وقد قرأ بعض القراء[1] ﴿وكلمة الله﴾ بالنصب، إلا أن قراءة الجمهور بالرفع، وهى أقوى فى المعنى لأنها تعطى معنى التقرير، فكلمة الله هى العليا طبيعة وأصلا بدون تصيير متعلق بحادثة معينة.

ومما يستنبه النظر فى هذه الآية الكريمة التى تحدثت عن طرف من أخبار الهجرة تكرر الظرف «إذ» ثلاث مرات فيها:

﴿إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين﴾.

﴿إذ هما فى الغار﴾

﴿إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا﴾.

وكان هذا التكرار بمثابة التنبيه والتذكير لهؤلاء المثبطين والمنافقين

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ٨ ص: ١٤٩، وتفسير المنار جـ١٠ ص: ٤٣٢.

بحماية الله لنبيه ﷺ ونصره له فى أحلك الظروف، وأشدها خطرًا، عليهم أن يفيئوا إلى أنفسهم ويدركوا أن تخلفهم وكيدهم لا يدفع النصر أو يسبب الهزيمة؛ لأن الله ينصر رسله وأولياءه وهو سبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾(1).

وفضلا عن كل هذا فإن تكرار «إذ» فى المرة الثالثة إشارة إلى حقيقة هامة، وهى أن سبيل النصر الاعتقاد الصادق بالحق والعمل به، وأن كل ما عرف الناس من وسائل القتال إنما هى فى نظر المؤمن أدوات مغلولة معطلة بإزاء ما يملأ قلبه من ثقة بربه عز وجل(2).

٣

على أن هذه الآية الكريمة إذا كانت قد تحدثت عن نصر الله لنبيه فى ذلك الظرف العصيب، فإنها بينت أن هذا النصر الذى وعد الله به أولياءه وأصفياءه مرتبط بما يبذله هؤلاء من جهد، وما يقدمونه من سعى، فالإيمان الصادق لا يعرف التواكل والتخاذل، ويفرض على المرء أن يلجأ إلى الله يسأله الرعاية والحماية بعد أن يكون قد

---

(1) الآية : ٥١ من سورة غافر.

(2) مجلة الوعى الإسلامى - العدد ١٣ ص : ١٥.

قدم بين يدى دعاته ما يمكن أن يقدر عليه من عمل يدنيه من غايته ورجائه.

وإذا لم يدخر المؤمن وسعًا فيما يجب عليه أن يباشره من الأسباب، ثم واجه ما لا قدرة له على دفعه، فإن تأييد الله له يمنعه مما هو عاجز عن التغلب عليه، فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام، دعا قومه إلى عبادة الله، وترك عبادة الأصنام، فأعرض قومه عنه، ولما وجدوه لا يقلع عن السخرية بهم وبآلهتهم، أرادوا أن يتخلصوا منه بإلقائه فى النار ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين﴾[1]، ولم يستطع إبراهيم أن ينجو من براثن قومه، فقد تمكنوا منه، وأعدوا له نارًا حامية، ثم قذفوه فيها، ولكن الله سبحانه وتعالى أنقذ نبيه من كيد قومه، ﴿ قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم. وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾[2].

ومن ثم فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم بعدما أطلعه ربه على ما أطبقت عليه قريش فى دار الندوة، وبعد أن أذن له بالهجرة إلى يثرب، فكر مليًّا فى هذه الرحلة الشاقة، واتخذ الأسباب التى تكفل لها النجاح، مع ثقة لا حد لها فى وعد الله بالحماية والنصر.

إن الرسول ﷺ يدرك أن قريشًا قد أعدت عدتها لتنفيذ قرارها،

---

(١) الآية : ٦٨ فى سورة الأنبياء.

(٢) الآيتان : ٦٩ - ٧٠ فى سورة الأنبياء.

وأن بالها لن يهدأ حتى تنفذ ما انتهت إليه، وأن بمجرد خروجه من مكة لا يعنى نجاته من الخطر، لأنه سيطارده فى مخارم الجبال والأودية، والمسافة بين مكة والمدينة ليست قصيرة فهى تبلغ نحو ٤٠٠ كيلومتر فى ذلك العصر، فكان عليه أن يخطط لهجرته ويحتاط لكل الإحتمالات، وإن بدا ما قام به الرسول ﷺ إزاء قوة قريش أمرًا هينًا إلا أنه كان لازمًا - فضلاً عن تأييد الله ونصره - لكى يصل محمد صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ومعه صاحبه دون أن تنال قريش منهما ما تريد.

وتمثلت الخطة التى وضعها الرسول صلى الله عليه وسلم ليفوت على قريش هدفها فيما يلى:

أولاً: سرية اللحظة التى خرج فيها من مكة، أو بعبارة أخرى تضييق دائرة الذين يعرفون هذه الخطة بحيث لم تشمل سوى أفراد[1] قلائل ممن لا يشك فى إخلاصهم وصدق جهادهم.

ثانيًا: خداع قريش والتجسس عليها للوقوف على خططها بعد أن عجزت عن قتل الرسول ﷺ وهو فى بيته حتى يأخذ حذره، ويتصرف طوعًا لما تدعو إليه الأحداث وتوحى به الأخبار.

---

(١) قال ابن إسحاق: ولم يعلم فيما بلغنى بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلا على بن أبى طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبى بكر.
(سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٩).

فقد انطلق الرسول الكريم ﷺ إلى منزل أبي بكر متقنعًا[1] في ساعة لم يكن يأتيه فيها، لقد جاء إليه وقت الظهيرة، وما كانت عادته أن يذهب إلى صاحبه في هذا الوقت، وصدقت أحاسيس أبي بكر حين رأى الرسول مقبلاً، فما حمله على المجيء بالهاجرة إلا أمر خطير، وما كان تفكير الصديق في غير الهجرة، فقد سبقه المسلمون إليها، وكان كلما هم بها وطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له فيها قال له: «لا تعجل لعل الله[2] أن يجعل لك صاحبًا».

ودخل الرسول ﷺ على أبي بكر وطلب منه أن يخرج منْ عنده فقال الصديق: إنما هم أهلك، فقال الرسول ﷺ: «فإني قد أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، وتهللت أسارير الصديق، وبكى من شدة الفرح حتى تعجبت من بكائه ابنته عائشة، لما قال الرسول ﷺ: الصحبة يا أبا بكر.

وكان الصديق بفراسة المؤمن، وفرط حبه وإخلاصه للرسول يتوقع هذه الصحبة، ولا سيما بعد أن قال له الرسول ما قال حين سعى إليه ليأذن له في الهجرة، ودفع هذا أبا بكر إلى شراء راحلتين وعلفهما أربعة أشهر استعدادًا لهذه الرحلة المباركة.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ١٢٩، وزاد المعاد جـ ٢ ص ٧٣.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير جـ ٣ ص ١٧٥.

٤

ومن باب صغير يشبه النافذة فى منزل الصديق خرج محمد ﷺ وصاحبه فى جوف الليل، ومضيا إلى غار بجبل ثور، ولم يكن يعرف خبرهما غير عائشة وأسماء ابنتى أبى بكر، ثم عامر بن فهيرة الراعى الذى قام بدوره فى محاولة طمس آثار الرسول ﷺ وصاحبه إلى الغار، وأيضًا آثار أسماء، وهى تحمل إليهما الزاد طيلة المدة التى مكثا فيها فى الغار، وذلك أنه كان يدفع بالإبل والغنم فى طريق الغار لتبدد آثار أقدامها معالم الصعود إليه أو النزول منه. وكان هناك عبد الله ابن أريقط وهو غير مسلم، لقد استؤجر ليكون دليل الركب من غار ثور إلى المدينة، لخبرته بالطريق، وكان عليه أن يذهب بالراحلتين إلى الغار بعد أن يسكن البحث عن الرسول ﷺ وصاحبه ومع أن ابن أريقط كان على دين قريش، وأقام بمكة كل المدة التى مكثها الرسول فى الغار أمينًا على السر حفيظًا عليه، فقد كان خُلق الأمانة فى العرب أصيلاً على الرغم مما كان شائعًا بينهم فى الجاهلية من عادات وأخلاق قبيحة.

وأما على بن أبى طالب كرم الله وجهه ورضى الله عنه، فقد اتشح ببردة الرسول ﷺ ونام فى مكانه، وكان هذا لونًا من خداع

قريش[١] - فقد كان الفتيان الذين يحاصرون بيت الرسول ﷺ يعتقدون أن محمدًا فى فراشه، فهم يبصرون فيه شخصًا نائمًا، وشاءت إرادة الله وتأييده لنبيه أن ينام هؤلاء الفتيان ﴿فأغشيناهم فهم لا يبصرون﴾ ويخرج الرسول ﷺ من بيته ليضع على رءوسهم التراب وهم كالخشب المسندة، ثم يهرع إلى منزل أبى بكر لتبدأ الرحلة التى غيرت وجه التاريخ.

وبدت تباشير الصباح، فاقتحم فتيان قريش المنزل المحاصر، ليفاجأوا برؤية على فى فراش الرسول ﷺ. ويسألونه عن محمد فى غضب فيجيبهم بغير ما يطمعون، وتموج مكة بالخبر، لقد نجا محمد من الموت، وخرج إلى يثرب، فهل سيتركه طغاة مكة يصل إلى مهجره فى سلام وأمان، إنهم لم يعقدوا ندوتهم إلا ليمنعوه من الإقامة بين أنصاره من الأوس والخزرج، فإذا كان فتيانهم لم ينجحوا فى القضاء عليه وجازت حيلته عليهم، فإن بعد الشقة ووعورة الطريق بين مكة ويثرب يتيح لهؤلاء الطغاة فرصة أخرى فى محاولة الفتك بمحمد.

وكان أول ما أقدم عليه طغاة قريش هو الذهاب إلى بيت أبى بكر، علهم يجدون ما يهديهم إلى بغيتهم، فهم لا يرتابون فى أن

---

(١) وكان على قد كلف مع هذا بمهمة جليلة فى مكة فقد [illegible] الرسول ودائع لبعض اهلها لأنه لم يشأ ان يرد بنفسه تلك الودائع أخذًا بالاحتياط وسرية الهجرة، ولذلك قام على برد هذه الودائع إلى أهلها.

ومن العجيب ان يأمن اهل مكة محمدًا على أموالهم دون أن يثقوا بما يخبرهم به من وحى السماء، ولكنها الجاهلية الجهلاء والعصبية الحمقاء.

محمدًا ﷺ قد استعان بالصديق لما بينهما من المحبة والإخلاص.

ذهب هؤلاء وعلى رأسهم أبو جهل بن هشام، وخرجت إليهم أسماء فقال لها أبو جهل: أين أبوك يا بنت أبى بكر؟، فقالت لهم لا أدرى والله أين أبى، ورفع الخبيث يده ولطم خد أسماء لطمة لا تعرف الرحمة حتى هوى قرطها من شدة تلك اللطمة، وسالت دماؤها الزكية آية على صدق جهادها وقوة يقينها، فهى من أعرف الناس بالمكان الذى لجأ إليه الرسول وأبوها، لأنها كانت تحمل إليهما الطعام إذا جن الليل كل يوم، وهى التى حلت نطاقها[1] وقطعت منه قطعة لتربط به فم الجراب الذى وضع فيه ما أعده أهل بيت الصديق من طعام للرحلة الخالدة، فبذلك سميت ذات النطاقين، أسماء هذه أنكرت أنها تعرف شيئًا عن أبيها، وما كانت لطمة أبى جهل بمجدية فى حملها على أن تقول ما تعلم، لأن إيمانها أقوى من بطش الجاهلين وإجرام القاسطين.

وأسرع كفار مكة يقتفون الأثر ولكن معالمه لا تستبين لهم فقد ذهبت بها غنم ابن فهيرة مولى أبى بكر، فلا يقنطون ويبحثون عن رجال منهم لهم خبرة بالأثر، ويهتدى هؤلاء إليه، ويمسكون بخيطه، فينتهى بهم إلى الغار، وهنا تبتدئ المعجزة، وينزل تأييد الله فيتحول مدخل الغار إلى عش للحمام، وبيت للعنكبوت لا يخالج من رآه أدنى شك فى أن هذا المكان لم تطأه قدم إنسان منذ كثير من

(١) النطاق: حبل تشد به المرأة وسطها للمهنة.

السنين، وقد روى عن بعض المشركين أنه قال لمن قادوهم إلى الغار وأكدوا لهم أن الأثر انتهى إليه : إن هذا العنكبوت هنا قبل أن يولد محمد.

ويثوب القوم إلى مكة تعلوهم كآبة الهزيمة وتستبد بهم حمية الجاهلية، فهل تراهم يستسلمون، ويدعون محمدًا وصاحبه، لا، فالقلوب التى ران عليها الشرك والعقول التى أبت إلا أن تحيا فى ظلام الجهل لا تعرف للأحقاد المسعورة حدًّا ولا يستقر لها خاطر ما دامت تجد أمامها نافذة للشر، ولهذا نادت قريش فى أعلى مكة وأسفلها : من قتل محمدا أو أبا بكر فله مائة من الإبل[1].

إنه جُعل ظنت قريش أنه سيطفىء نار غيظها، ويقدم إليها محمدًا وأبا بكر جثة هامدة، ولكن هيهات ! . .

ويعرف الرسول وصاحبه وهما فى الغار كل ما كان يجرى فى مكة، كان عبد الله بن أبى بكر يقضى نهاره مع قريش، وهو فتى ذكى، يسمع ما يأتمر به رجالاتها، ثم يتسلل فى المساء إلى الغار ليخبرهما بما سمع، ولا جدال فى أن هذا كان من عوامل إخفاق قريش ونجاح الهجرة، لأن الرسول بعد أن عرف ما أقدمت عليه قريش من دفع مائة من الإبل لمن يقتل محمدًا أو أبا بكر، لم يسلك فى هجرته طريق يثرب المألوف وإنما سلك طرقًا مختلفة لم تكن فى حسبان القوم.

---

(١) إمتاع الأسماع، جـ ١ ص : ٤٠.

وهكذا نرى أن الهجرة لم تكن عملاً ارتجاليًا، ولم تكن الثقة التى لا حد لها فى نصر الله حجة للتواكل والسلبية، ولكنها على العكس كانت حاديا للحزم وباعثًا على الحذر وأخذ الأمور بمنطق علمى دقيق، لا يترك شيئًا للصدفة[1].

إن العقيدة الإسلامية تفرض على المؤمنين بها أن يكونوا إيجابيين فى كل ما يأتون ويدعون، تفرض عليهم أن يأخذوا للحياة أسبابها المشروعة فى إخلاص وإتقان ودون غرور أو ادعاء: «إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه»، ﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾[2].

ولهذا كانت الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس.

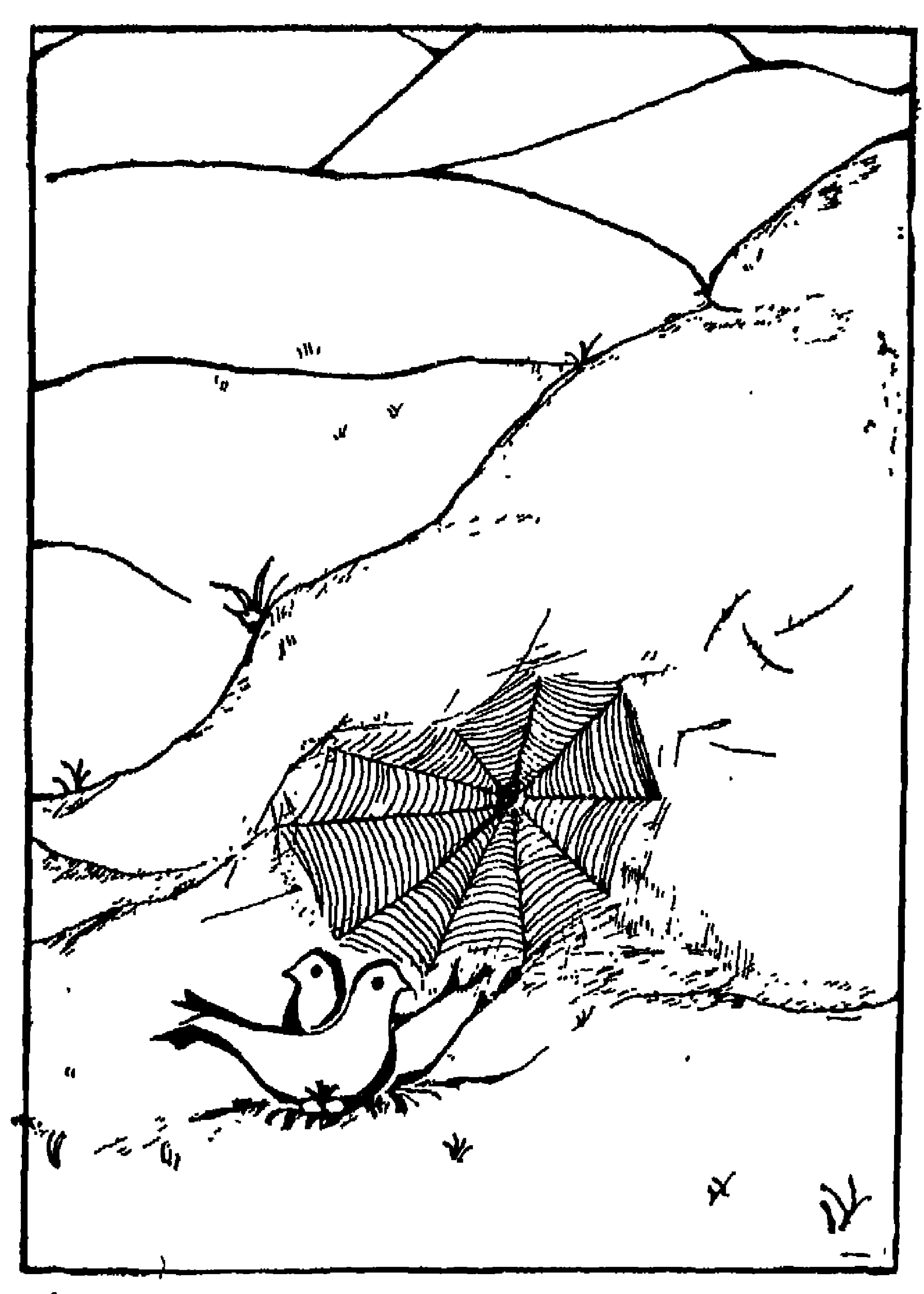
٥

وانقضت أيام ثلاثة، كانت فيها مكة تغلى بالغضب والحقد وتنذر بالثبور والويل، لا عمل لسادتها غير البحث عن وسيلة تقضى بها على محمد قبل أن يصل إلى أتباعه فى يثرب التى أصبحت تدعى بعد الهجرة «المدينة».

---

(١) انظر مواقف إسلامية للدكتور/عبد العزيز كامل، ص: ١١٤.

(٢) الآية: ٢٥ فى سورة التوبة.



وفتر الطلب عن الرسول بعد هذه الأيام الثلاثة، وكأن الجاهلية قد خامرها الإحساس بالهزيمة وإن كانت لم تلق السلاح، وتترك الركب يغذ السير إلى غايته فى أمن واطمئنان.

ووافى ابن أريقط الرسول وصاحبه بالراحلتين لدى الغار، فركب صلى الله عليه وسلم راحلة منهما اسمها الجدعاء، وركب الأخرى أبو بكر رضى الله عنه، وقد أردف خلفه مولاه عامر بن فهيرة، وسار عبد الله بن أريقط على راحلته فى مقدمة الركب فهو الدليل الذى يخبر الطريق والذى استؤجر لهذه المهمة.

وأما المدة التى مكثها الرسول ﷺ مع صاحبه فى الغار فهى ثلاث ليال، كما يذهب المحدثون وعامة مؤرخى[1] السيرة، وذكر المقريزى[2] أن الرسول مكث فى الغار بضعة عشر يومًا. ولكن هذا غير دقيق، وهو اعتماد على حديث مرسل لا يسلم من الأخذ والرد.

وكان خروج الرسول من مكة فى شهر صفر[3] فى بعض الروايات، إلا أن المشهور أن الرسول ﷺ خرج من مكة فى ربيع الأول ودخل يثرب فى نفس الشهر، وكان بين دخوله وخروجه خمسة عشر[4] يومًا تقريبًا.

---

(١) صحيح البخارى جـ ٢ ص ٦٩، ط بولاق، وابن هشام جـ ٢ ص: ١٣٠.
(٢) إمتاع الأسماع جـ ١ ص: ٤١.
(٣) المرجع السابق.
(٤) البداية والنهاية جـ ٣ ص: ١٩٠.

وجاء أن يوم خروجه كان الثامن من هذا الشهر، وهو يوافق اليوم العشرين من شهر سبتمبر[1] سنة ٦٢٢ ميلادية.

وروى عن ابن عباس[2] أن يوم خروج الرسول كان الاثنين، وأنه أيضًا كان يوم دخوله، كما كان يوم مولده وبعثته ووفاته.

وصلى الرسول الفجر إمامًا بمن صحبه فى هجرته، ثم انطلق الركب العظيم تحوطه عناية الله، نحو غايته ليس معه من سلاح يذود به عن نفسه شر الإنسان والحيوان غير سلاح التقوى والإيمان، وأنعم به من سلاح لا يفل ولا يهزم أبدًا.

وفى هذا الطريق الممتد عبر الصحراء، ماذا كان يشغل بال خاتم الرسل والأنبياء، وماذا جرى له من أحداث وواجه من صعوبات ومشكلات.

لقد ترك محمد صلى الله عليه وسلم مكة بعد أن ناصبته العداء وبعد أن آذته فى نفسه وأصحابه وأجمعت كلمتها فى النهاية على الفتك به لتتخلص منه ومن دعوته التى سفهت أحلامها وعابت آلهتها، وإذا كان قد نجا منها، وسلك طريقه إلى يثرب حيث أصحابه وأنصاره ينتظرونه، فإن الذى لا شك فيه أن كثيرين ممن يتطلعون إلى قبض جائزة قريش التى أعلنت عنها لمن يقتل محمدًا أو صاحبه سيغامرون من أجل الظفر بهذه الجائزة.

---

(١) مجلة الرسالة، العدد ١٠٦١ ص: ١١

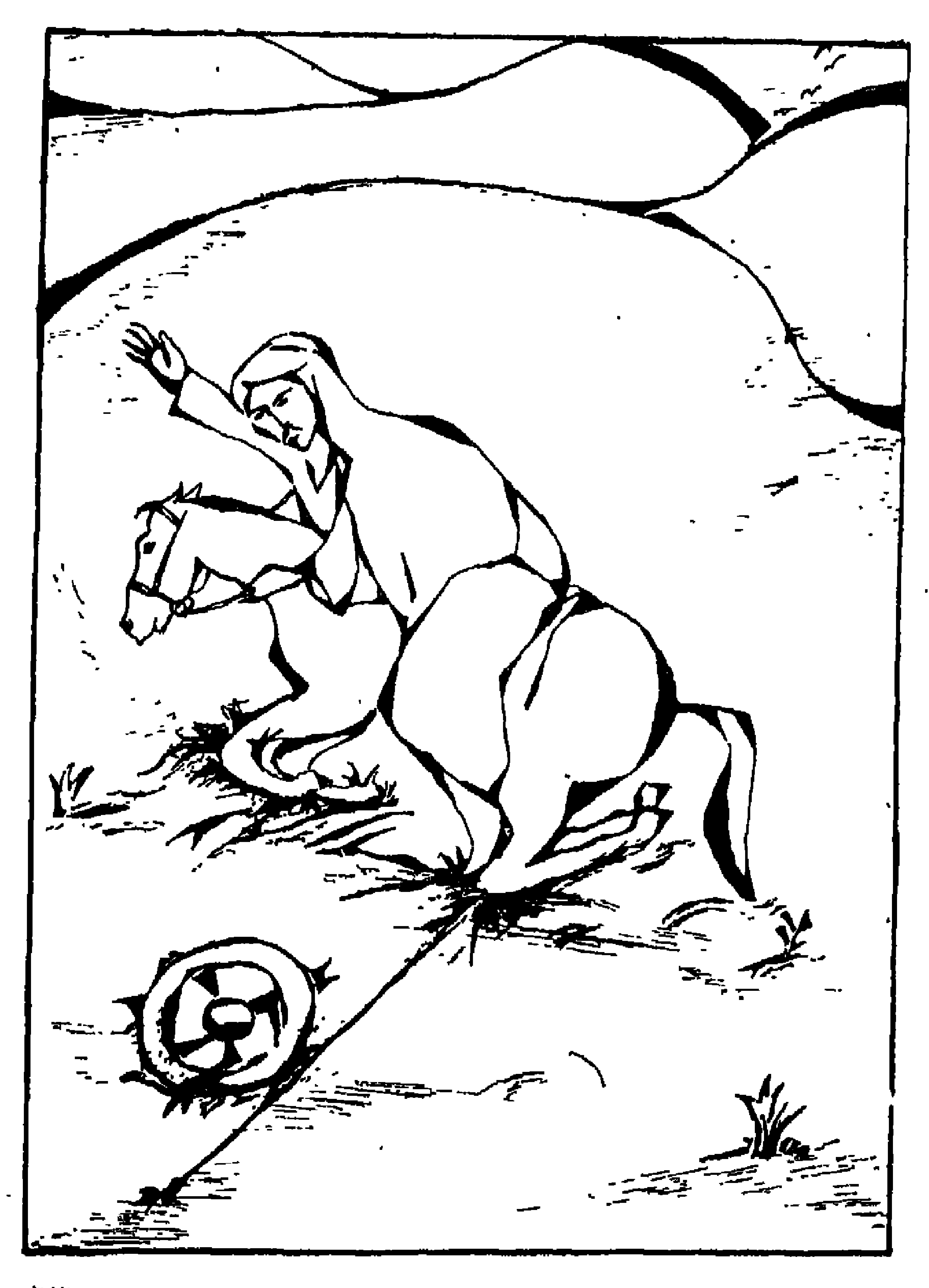
(٢) البداية والنهاية جـ ٣ ص: ١٧٧.

وما كان الحرص على دفع خطر المغامرين .وطلاب الإبل هو الذى يشغل بال الرسول وصحبه فحسب، فقد كان الرسول يفكر فى ذلك المجتمع الذى يسرع إليه، فهناك الأوس والخزرج، وما بينهما من تراث فى الجاهلية، وهناك المنافقون واليهود بما عرفوا به من الغدر والخيانة، ثم هؤلاء المهاجرون الفقراء الذين تركوا كل ما يملكون فى مكة، وكيف يواجهون الحياة فى مهجرهم الجديد، وكان كل هذا من أجل الدين القويم الذى اصطفاه الله لتبليغه إلى الناس كافة.

وبينما الركب يوفض إلى غايته إذ بدا من بعيد قادم على فرس، وقد شهر سلاحه، وأوجس الصديق خيفة من هذا القادم، فقد كان طوال الطريق لا يفكر فى غير وقاية الرسول الأضرار والأخطار.

وكان هذا القادم سراقة بن مالك أحد الطامعين فى جائزة قريش، فلما دنا من الركب ساخت قوائم فرسه فى الأرض، فزجرها لتنهض، وما كادت تستوى قائمة حتى ساخت أرجلها مرة ثانية، واضطرب فؤاد سراقة، وخاف أن يصيبه مكروه، واستيقن أنه لن ينال من محمد وصاحبه شيئًا، فنادى بالأمان، ثم أخبر الرسول بما تريده قريش به، فطلب منه الرسول أن يرد عنه الطلب، وأمر عامر ابن فهيرة أن يكتب كتاب أمان لسراقة، استجابة لرغبته فى هذا، وكأن وجدانه حدثه بأن هذا المطارد الهارب سيكون له شأن وسلطان بين العرب عما قريب.

ورجع سراقة من حيث أتى وكان لا يلقى أحدًا من رجال قريش



إلا رده، فلما وصل الرسول إلى يثرب أخذ سراقة يقص على الناس ما رأى وما شاهده من أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وما كان من قضية جواده، وذاع حديث سراقة فى مكة، وخاف رؤساؤها أن يكون ذلك سببًا لإسلام[1] كثير من أهلها، فسعوا ليحملوه على الكف عما يقصه ويتحدث عنه، فما أذعن لهم.

وتمر الأيام، ويفتح الله على رسوله مكة ويفرغ النبي من حنين والطائف، وكان سراقة مازال على دين قومه، وكان يحتفظ بالكتاب الذى كتبه له ابن فهيرة. فخرج ومعه الكتاب للقاء الرسول فلقيه بالجعرانة[2] فلما قرب منه رفع يده بالكتاب ثم قال: يا رسول الله، هذا كتابك لى أنا سراقة بن جعشم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يوم وفاء وبر، وأدناه الرسول منه، وأسلم سراقة، وأنسى جلال الموقف سراقة أن يسأل محمدًا عما يريد، إلا أنه قال له: إن الإبل الضالة ترد حياضى وتشرب منها، وهو قد أعدها لإبله، فهل له بذلك من أجر، وقال له الرسول الرحيم: نعم فى كل ذات كبد حرّى أجر، وعاد سراقة إلى قومه بنى مدلج مسلمًا داعيًا إلى الله.

---

(١) انظر: البداية والنهاية جـ ٣ ص: ١٨٥.

(٢) الجعرانة: ماء بين الطائف ومكة، وهى إلى مكة أقرب.

٦

وفى منتصف الطريق بين مكة والمدينة اتخذت امرأة يقال لها ام معبد خيمة أعدت فيها كل ما تستطيع تقديمه لراحة المسافرين، من طعام وشراب واستجمام وحديث نزيه تطرفهم به صاحبة الخيمة، فهى امرأة برزة؛ أى تبرز إلى الرجال فتجالسهم وتحادثهم.

ومر الرسول وصحبه بخيمة أم معبد، وأقام بها بعض الوقت، ولم يكن لدى صاحبة الخيمة فى ذلك اليوم ما يمكن تقديمه لعابر أو زائر، فالعام عام جدب وقحط، ولما سألها الصديق أن تبيعهم تمرًا أو لحمًا، قالت: والله لو كان عندنا شىء ما أعوزكم القرى.

وحانت من النبى الكريم التفاتة فرأى شاة رابضة فى جانب الخيمة، يبدو عليها الهزال والإعياء، فسأل أم معبد عنها، فقالت: هذه شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ فردت أم معبد: هى أجهد من ذلك، فقام إليها الرسول ﷺ ومسح ضرعها، وأم معبد تتعجب وتقول فى نفسها: ماذا عساه يفعل؟

وإذا بالشاة تدر باللبن فشرب الرسول ومن معه حتى ارتووا واستراحوا، ثم هبوا عجلين إلى ركائبهم، فامتطوها واستبقوا طريقهم إلى المدينة، وتركوا أم معبد فى دهشة من أمرهم.

وبعد هنيهة قدم عليها زوجها أبو معبد فرآها مضطربة متغيرة اللون، ورأى فى جنبات الخيمة آثار أكل وشرب فقال: من أين لكم هذا والشاة عازبة[1]، ولا حلوبة فى البيت؟ فأخبرته بخبر المسافرين الذين نزلوا بها وأن واحدًا منهم قام إلى نعجتها هذه العجفاء الجافة الضرع فحلبها فدرت لبنًا غزيرًا فقال لها: يا أم معبد صفى لى هذا الرجل العجيب، فقالت: «رأيت رجلاً ظاهر الوضاء منبلج الوجه حسن الخلق، لم تعبه ثجلة، ولم تزر به صلعة، فى عينيه دعج، وفى أشفاره وطف، وفى صوته صحل، أحور أكحل، أزج أقرن، شديد سواد الشعر فى عنقه سطع، وفى لحيته كثافة، إذا صمت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نظم يتحضرن، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، أجهر الناس، وأجمله من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه عين من طول، ولا تقتحمه من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قدرًا، له رفقاء يحفون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره، محفود محشود لا عابث ولا مفند»[2]

---

(١) أى لم تلد.

(٢) تفسير ما فى وصف أم معبد من غريب اللغة:

ثجلة: كبر البطن، صعلة: صغر الرأس، دعج: سواد العين مع سعتها، وطف: طول الأهداب، الصحل كالبحة، وألا يكون حاد الصوت، والقرن: التقاء الحاجبين والصحيح فى صفة النبى صلى الله عليه وسلم أنه كان مفروق الحاجبين، أزج: رقيق الحاجبين طويلهما، =

فلما سمع أبو معبد هذا الوصف قال وقد علاه الوجوم : ويحك يا أم معبد هذا هو صاحب قريش الذين ما زالوا يطلبونه، وقد بذلوا جعلاً لمن يرده إليهم، ثم تركها، وأخذ يشتد فى أثر الركب حتى أدرك النبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ورجع إلى قبيلته يبشرهم بالإسلام.

وجعل رجال القبيلة الذين بلغهم خبر مرور النبى صلى الله عليه وسلم بأم معبد يفدون على خيمتها، ويستوصفونها صفة النبى، وهى تصفه لهم حتى قال بعضهم : يا أم معبد ما بال وصفك لرسول أوفى وأتم من وصفنا له لو رأيناه نحن معشر الرجال : فقالت : أما علمتم أن المرأة إذا نظرت إلى الرجل كان نظرها أشفى[1] من نظر الرجل إلى الرجل؟

وقد هاجرت أم معبد إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأسلمت[2].

ولم يأخذ علماء الحديث على وصف أم معبد للرسول إلا أنها نعتته بأنه كان أقرن أى مقرون الحاجبين وكل الذين وصفوه من

= سطع : طول. لا نزر ولا هذر: لا قليل الكلام ولا كثيره : أجهر الناس: ارفعهم صوتًا. ربعة : وسيط القامة، لا تشنؤه العين : أى لا تكرهه ولا تنفر منه. لا تقتحمه أى لا تحتقره ولا تزدريه. محفود : يسارعون إلى خدمته. محشود : أى يجتمع أصحابه إليه. مفند أى لا يتكلم بكلام غير معقول.

(١) أشفى : أدق وأكثر استقصاء وانتباهًا.

(٢) طبقات ابن سعد جـ ٢ ص ٢٣٠.

الصحابة قالوا إنه كان أفرق أى مفروق الحاجبين متباعدهما وقولهم هو الصحيح فى وصفه..

والراجح أن أم معبد لم تخطئ فى الوصف، وأنها لم تقل أقرن، وإنما قالت أفرق، ولكن الكلمة حرفت وما أيسر وقوع التحريف بين أفرق وأقرن[1].

٧

وكانت أخبار خروج الرسول من مكة قد وصلت إلى المدينة وهو لم يزل فى طريقه إليها، فكان أهلها يبرزون إلى ساحاتها وضواحيها، ويروحون ويغدون بينها وبين «قبا»[2] انتظارًا لمقدم الرسول وشوقًا إلى رؤيته.

وكان هؤلاء الذين ينتظرون محمدًا ﷺ وصحبه لا حديث لهم إلا عن صفات الرسول ﷺ وهيبته، وبينما هم يتجادلون فى إقامة الرسول ﷺ «بقبا» ليلة للراحة من وعثاء الرحلة الطويلة، ثم يتوجه إلى المدينة بعدها، إذ طلع عليهم من قال: جئت الآن من قبا، وقد وصلها النبى ﷺ ومن معه، وما سمع الأنصار والمهاجرون هذا حتى غمرتهم البهجة ورفعوا أبصارهم إلى السماء يسألون الله لدينه

---

(١) انظر المصدر السابق، ومجلة الرسالة - العدد ٩٦٦ ص: ٩.

(٢) قرية تبعد عن المدينة نحو أربعة كيلومترات.

النصر ولنبيه العز والخير، وهبوا عجلين صوب «قبا».

وكان كثير من المؤمنين لم ير الرسول ﷺ، من قبل، وخلط بعضهم بينه وبين «أبي بكر»، وحين وقف الصديق يظلل الرسول ﷺ بردائه وقاية له من حر الشمس - فقد كانت الهجرة في وقت قائظ - عرف الناس نبيهم وجعلوا يهتفون إليه بالتحية والترحيب والإجلال والتعظيم.

وأردف النبي ﷺ أبا بكر خلفه، وأخذ طريقه إلى المدينة، وحف به الناس فرحين مستبشرين حتى دخلوها، فإذا أحاجيرها[1] مزدحمات بالنساء لما رأين شخص النبي حتى علت أصواتهن بالزغردة والأناشيد.

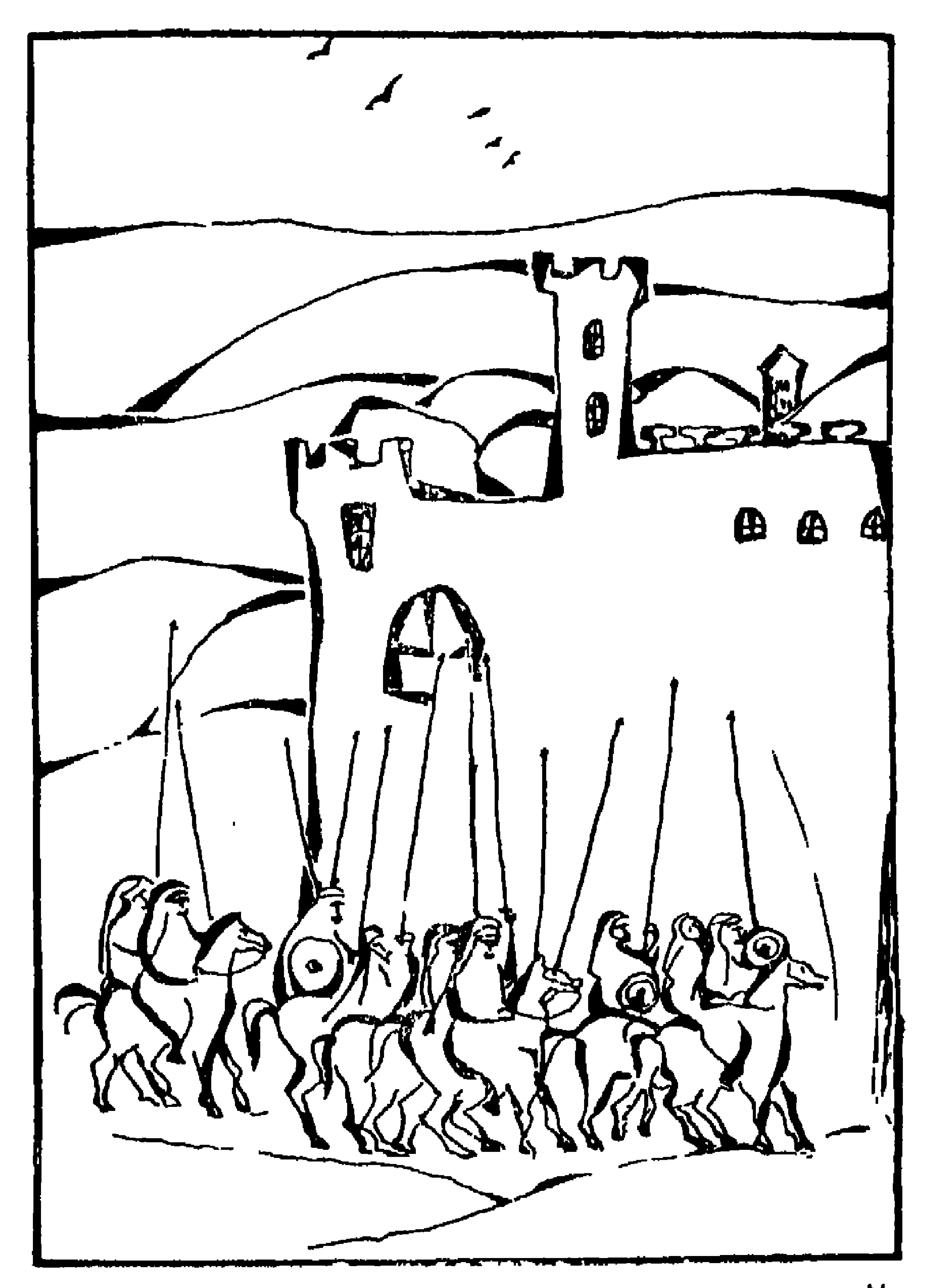
وكان صغار الصبيان والجواري يمشون زرافات بين يدي النبي يضربون بالدفوف وينشدون نشيد الهجرة الذي مطلعه:

طلع البدر علينا   من ثنيات الوداع

كذلك تفرق الغلمان في بعض سكك المدينة ينادون: جاء محمد رسول الله ﷺ.

لقد كانت المدينة في يوم عيد لم تعرف له نظيرًا في تاريخها، فطرقاتها تموج بمعالم السعادة والغبطة، والأطفال يغنون وينشدون ويرقصون، والرجال يلعبون بالحراب ويرقصون، والنساء فوق أسطح

(١) أي شرفات سطوحها.



المنازل يزغردن، كانت البسمة فى كل فم، والسرور يفيض به كل وجه.

ولما تخلل الموكب دور المدينة جعل سكانها يقفون فى وجه الناقة ويضرع كل منهم أن ينزل النبى صلى الله عليه وسلم ضيفًا عليه، وكانوا أحيانًا يمسكون بزمام الناقة ويميلون رأسها إلى جهة بيوتهم، والرسول لا يعنفهم ولكنه يقول لهم فى رفق: «خلوا سبيلها فإنها مأمورة»[1].

وأخيرًا بركت الناقة على باب أبى أيوب الأنصارى النجارى، ونزل الرسول ﷺ عنها ودخل الدار قائلاً: «رب أنزلنى منزلاً مباركًا وأنت خير المنزلين» وقال أنس خادم النبى عن ذلك اليوم المشرق: «إننى لم أر يومًا فى عمرى أحسن ولا أضوأ من ذلك اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ المدينة ونزل دار أبى أيوب».

وفور وصول الرسول ﷺ إلى المدينة شرع يعمل من أجل الغاية التى دعت إليها الهجرة، بنى المسجد، وعقد مع أهل المدينة معاهدة[2] سلام وتعاون وحسن جوار، ثم آخى بين المهاجرين والأنصار، لتتوثق الروابط بينهم، وتهيأت للدعوة فى مهجرها هذا

(١) انظر ابن هشام ج ٢ ص ١٣٩، إمتاع الأسماع ج ١ ص ٤٧، ومجلة الرسالة العدد ٩٦٦ ص ٩.

(٢) انظر نص المعاهدة فى كتاب المنتخب من السنة ج ١ ص ١٣٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

وغيره عوامل النمو والازدهار والقوة، وبحيث لم يكد يمضى على المسلمين عامان فى المدينة حتى خاضوا معركتهم الأولى فى بدر، وفى العام الثامن بعد الهجرة كان الرسول ﷺ يقف على باب الكعبة بالقرب من دار الندوة حيث تآمرت قريش على قتله قبيل هجرته فيقول : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده، وأعز جنده، يا أهل مكة، ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا : خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فيقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء. سلام الله عليك يا رسول الرحمة ونبى الإنسانية، لقد طهر الله قلبك من الحقد والضغينة والانتقام، وكنت المثل الأعلى فى الصفح والعفو، لأنك لا تريد إلا نصرة الحق وهزيمة الباطل، وفى سبيل ذلك تحملت ما تحملت حتى حقق الله النصر، وهوت أصنام المنكر والشرك ودخل الناس فى دين الله أفواجًا.

المهاجرون والأنصار

١

المهاجرون والأنصار هم حملة الإسلام الأول آمنوا به، وكافحوا من أجله، وجادوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل تبليغ دعوته وإعلاء كلمته، وضربوا أروع الأمثلة فى الفداء والجهاد، وصاروا بكل ذلك أهلاً لما أسبغه الله عليهم من فضل، وما أعده لهم يوم القيامة من ثواب عظيم ونعيم مقيم.

إن المهاجرين بإيمانهم الراسخ ويقينهم الخالص لم يمكنوا الجاهلية فى مكة من وأد الدعوة، وهى فى مستهل حياتها، لقد استمسكوا بما أوحى إلى نبيهم ولم تزدهم حماقة قريش إلا اعتصامًا بما اهتدوا إليه وآمنوا به، ولما أسرفت الجاهلية فى عسفها واضطهادها وأذن الله لهؤلاء المؤمنين الصابرين بالهجرة من مكة خرجوا من ديارهم وأموالهم، ويمموا صوب المدينة وهناك استقبلهم إخوانهم الأنصار بالحفاوة والإكبار، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين، فقد تميز بالحب الرائع والبذل السخى والإيثار الكريم، كان المسلم الأنصارى يقدم إلى أخيه المسلم المهاجر

نصف ماله أيًا كان نوعه وكان يطلق إحدى زوجاته ليتزوجها المسلم المهاجر الذى لا زوج له، وبهذه الروح السامية.. روح الإيمان والحب والإخاء والفداء والإيثار تكون المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة، واستطاع هذا المجتمع بهذه القيم الخالدة والمثل الفاضلة أن يدحر كل مؤامرات المنافقين واليهود فى المدينة، وأن يكون للدعوة الخاتمة قوة عادلة تمكن لها فى غير إكراه لأنه لا إكراه فى الدين، وما يقوله بعض المستشرقين ومن سار فى ركابهم من الباحثين المسلمين من أن الإسلام دين ذاع بحد السيف قول باطل، ويكفى فى إدحاضه انتشار الإسلام فى بلاد لم تعرف الجيوش الإسلامية طريقًا إليها، وكان التجار والرحالة والعلماء هم حملة الإسلام إلى تلك البلاد.

وهؤلاء الأمجاد الأبطال من المهاجرين والأنصار تحدث كتاب الله عنهم حديثًا يفيض بالثناء عليهم والإشادة بهم، فهم قد أخلصوا ما عاهدوا الله عليه هاجر المهاجرون يرجون رحمة الله وخلفوا وراءهم فى مكة أموالهم وديارهم وأهليهم وأحلام طفولتهم وآمال شبابهم انتصارًا لإيمانهم وفداء لعقيدتهم، وآوى الأنصار ونصروا وبذلوا فى سخاء وآثروا على أنفسهم فى غبطة فكانوا جميعًا المؤمنين حقًا وصدقًا وكانوا أهلًا لما أعده الله لهم فى دار الخلد والبقاء من ثواب جزيل، وصدق الله العظيم: ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقًا لهم مغفرة ورزق

كريم﴾[1]. ﴿والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم﴾[2].

على أن حديث القرآن عن المهاجرين جاء أكثر من حديثه عن الأنصار، وقد أفرد أولئك بالذكر فى بعض الآيات على حين ورد ذكر هؤلاء مع المهاجرين دون أن يفردوا بالذكر فى آية واحدة.

وليس ذلك من باب تفضيل المهاجرين على الأنصار مع التسليم بأن المهاجرين أسبق إيمانًا وجهادًا وذكرًا فى القرآن وتعرضوا لصنوف مختلفة من التعذيب لم يتعرض لها الأنصار، ويكفى أن الله تبارك وتعالى وصفهم جميعًا بأنهم المؤمنون حقًا، وبأنه سبحانه رضى عنهم ورضوا عنه.

ولكن القرآن الكريم تحدث أكثر عن المهاجرين ليسجل لهم بعض ما تعرضوا له من الأذى والاضطهاد فى مكة، وليتحدث عن أنواع المهاجرين وحظهم من الهجرة.

وقد أسلفت عند الحديث عن أسباب الهجرة الإشارة إلى بعض الآيات التى عبرت فى إجمال عن موقف كفار مكة من المؤمنين الصابرين، وكيف أكره هؤلاء على ترك ديارهم بسبب ذلك الموقف

(١) الآية ٧٥ فى سورة الأنفال.

(٢) الآية : ١٠٠ فى سورة التوبة.

الذى اتسم بالحماقة والغلظة والادعاء وسوء الأدب.

ولأن الهجرة كانت فرضًا على المؤمنين قبل فتح مكة فإن القرآن تحدث عن بعض المؤمنين الذين لم يهاجروا، أو تأخرت هجرتهم لتأخر إيمانهم، كما أشار إلى هؤلاء الذين أدركهم الموت وهم فى طريقهم إلى المدينة.

٢

من أخص خصائص الإسلام أنه عقيدة استعلاء، ولا تعنى كلمة الاستعلاء الغطرسة والكبرياء، ولكنها تعنى السمو الروحى الذى يربأ بالإنسان أن يعيش كالحيوان الأعجم تسيطر عليه شهوات الجسد، ويستكين لكل من يقدر عليه.

إن تعاليم الإسلام كلها تغرس فى نفوس المؤمنين به ذلك الشعور الكريم، شعور الاستعلاء فى غير كبر، وشعور الكرامة فى غير ضعف، فكلمة الشهادة - هى مفتاح الإسلام - تحرر الإنسان من عبودية غير الله، ومن ثم لا يخضع فى حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله إلا لما أمره الله به ونهاه عنه، فيحيا أبيًّا مستعليا على كل ما يحول بينه وبين الحياة العزيزة الكريمة.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن نوع من المؤمنين لم يهاجروا ورضوا بالإقامة مع قومهم، وكان عليهم أن يفروا بدينهم إلى الله ورسوله

استعلاء لعقيدتهم وتمردًا على الضعف والاستكانة وطلبًا للعزة والحرية والكرامة، فيصور هؤلاء تصويرًا يبرز مدى خضوعهم لضعف العزيمة وقعود الهمة والرضوخ للذل :

﴿إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم، قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرًا. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوًا غفورًا﴾[1].

وعذر هؤلاء بالضعف مرفوض، ولا يتفق مع روح القسوة والاستعلاء التى يبثها الإسلام فى النفوس ﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾.

ويؤكد رفض عذرهم وأنه غير صحيح أن الآية بعد ذلك تستثنى الذين يعجزون عن الهجرة ولا يعرفون سبيلاً أو حيلة إليها، لأن الله أرحم بعباده من أن يطلب منهم ما لايقدرون عليه فهو سبحانه لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

وقال الإمام القرطبى عن هذه الآية : المراد بها جماعة من أهل مكة أسلموا وأظهروا للنبى صلى الله عليه وسلم الإيمان، فلما هاجر أقاموا مع قومهم، وفتن منهم جماعة، فافتتنوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فنزلت الآية[2].

(١) الآيات : ٩٧ - ٩٩ فى سورة النساء.

(٢) تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣١٥.

وقال الإمام محمد عبده : كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم، فهم بحبهم لبلادهم، وإخلادهم إلى أرضهم وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ضعفاء فى الحق لا مستضعفون، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة خير الدنيا بعزة المؤمنين وخير الآخرة بإقامة الحق، فظلمهم لأنفسهم عبارة عن تركهم العمل بالحق خوفًا من الأذى وفقد الكرامة عند عشرائهم المبطلين[1]».

فهذا لون من المؤمنين الذين لم يهاجروا وهم قادرون على الهجرة، وهذا جزاؤهم المهين الذى يتلاءم مع مهانتهم وصغارهم، وكفى بذلك دليلا على أن المسلم لا يرضى بالدنية فى دينه ودنياه وأن عقيدة الاستعلاء دون غرور أو ادعاء تحكم حياته كلها..

٣

أما الذين آمنوا بعد الهجرة ثم هاجروا فيقول القرآن عنهم ﴿والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم﴾[2].
إنهم كالمهاجرين والأنصار فى الولاية والجزاء يجب لهم من الحق والنصرة فى الدين والموالاة مثل ما يجب عليهم لإخوانهم السابقين من المهاجرين والأنصار.

ومما يتصل بهؤلاء الذين آمنوا بعد الهجرة ثم هاجروا ما جاء فى

(١) تفسير المنار جـ٥ ص٣٥٦

(٢) الآية ٧٥ فى سورة الأنفال.

سورة الممتحنة[1] عن بعض المؤمنات المهاجرات: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لاهن حل لهم ولاهم يحلون لهن وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم﴾.

وهذه الآية الكريمة[2] يروى أنها نزلت بعد صلح الحديبية، وكان من شروطه أن من جاء الرسول من أهل مكة رده إليهم، ومن ذهب من المؤمنين إلى مكة فلا يرده أهلها إلى محمد، فجاءت امرأة لم يتفق المفسرون على اسمها إلى الرسول مسلمة، وهرع زوج المرأة أو أهلها يطلب من محمد أن يرد عليهم تلك المرأة، فنزلت الآية لإبطال ذلك الشرط بالنسبة للنساء، فلم يرد الرسول امرأة هاجرت إليه.

وتطلب الآية من الرسول أن يمتحن المؤمنات المهاجرات واختلف فيما كان يمتحنهن به على ثلاثة أقوال:

١ - كانت المرأة تستحلف بالله أنها ما خرجت بسبب بغضها لزوجها أو مضارته، ولا سعيًا وراء مغنم دنيوى من مال أو زوج، ولكنها هاجرت حبًا لله ولرسوله ﷺ.

---

(١) الآية العاشرة.

(٢) انظر القرطبى جـ١٨ ص٦١.

٢ - أن تشهد المرأة الشهادتين دون أن تستحلف.

٣ - أن تبايع الرسول بما جاء فى الآية: ﴿يأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئًا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾[1].

وهذا الامتحان على اختلاف فى تحديد مدلوله إنما هو للمؤمنين، لأن الله لا يخفى عليه شىء، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وهذا يرشد إلى أنه لا سلطان لأحد على ضمير الإنسان إلا الله، وأن كل من تظهر منه دلائل الإيمان وشواهد اليقين بالقول والفعل، فهو مؤمن تجرى عليه أحكام الإسلام وأما ما عقد عليه قلبه فأمره إلى الله.

وتأمر الآية إذا ظهر إيمان المؤمنات المهاجرات بعدم ردهن إلى أزواجهن الكفار، فقد انفصمت عرى الزوجية بإيمانهن، ولكن عدل الإسلام يقضى بدفع ما أنفق الكفار من صداق على زوجاتهم المهاجرات، ولا حرج على المسلمين أن يتزوجوا إذا دفعوا إليهن صداقهن.

ثم تنهى الآية فى ختامها عن التمسك بعقد زوجية الكافرات

---

(١) الآية ١٢ فى سورة الممتحنة.

الباقيات فى دار الشرك أو اللاحقات بها، وتأمر مع هذا بدفع ما أنفق الكافرون على زوجاتهم وأخذ ما أنفق المؤمنون كذلك، وهذا حكم الله بين عباده، وهو سبحانه أعدل الحاكمين.

وتجدر الإشارة إلى آية وردت فى سورة الأحزاب[1] لأنها كرمت المهاجرات وهى تتحدث عن أنواع من النساء أحلها الله للنبى صلى الله عليه وسلم: ﴿يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك، وبنات عمك وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج، وكان الله غفورًا رحيمًا﴾.

فى هذه الآية الكريمة يحلل الله للنبى صلى الله عليه وسلم أنواع النساء المذكورات فيها ولو كان فوق الأربع مما هو محرم على غيره وهذه الأنواع هى:

أولا: اللواتى أمهرهن، أى تزوجهن بصداق مسمى، فكلمة الأجور فى الآية يقصد بها المهور[2].

ثانيا: ما ملكت يمينه إطلاقا من الفيء والغنيمة.

---

(١) الآية: ٥٠.

(٢) انظر تفسير الطبرى جـ٢٢ ص١٥: طبولاق، وبصائر ذوى التمييز جـ٢ ص: ١٣١

ثالثا : كل امرأة تهب نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم بلا مهر ولا ولى إن أراد النبي نكاحها، وقد جعل الله هذه خصوصية للرسول بما أنه ولى المؤمنين والمؤمنات جميعًا.

ولكن الآية الكريمة بعد أن ذكرت ما أحله الله لنبيه من الأزواج اللاتى أمهرهن، وما ملكت يمينه، نصت على بنات العم والعمات، والخال والخالات، فهل لهذا النص دلالة على أن الله أحل لنبيه هؤلاء فضلا عما أمهرهن وما ملكت يمينه كما يذهب جمهور المفسرين، أو أن خصوصية هؤلاء بالذكر من قبيل التشريف والتقدير، والاهتمام على رأى بعض المفسرين[1] ؟

والذى أرجحه أن هذا النص من قبيل التشريف والتقدير وأن القيد الذى قيد به وهو ﴿اللاتى هاجرن معك﴾ يوحى بأن هذا النص إنما جاء لبيان أن درجة القرابة لا اعتبار لها إذا فقدت الإيمان الصادق وأن الهجرة كانت قوام الولاء والإخاء بين المسلمين، وأن المهاجرين رجالا ونساء أهل للتكريم والتقدير بما قاموا به فى سبيل الله.

على أن المراد بقول الله تعالى : ﴿هاجرن معك﴾ هو المشاركة فى الهجرة لا صحبتهن له فيها، فمن هاجر منهن حل له، سواء كان فى صحبته إذا هاجر أو لم يكن، يقال : دخل فلان معى، أى فى

---

(١) انظر القرطبى جـ١٤ ص : ٢٠٧ .

صحبتي فكنا معًا، ويقال: دخل فلان معى وخرج معى أى كان عمله كعملى وإن لم يقترن فيه عملكما[1].

وقد جاء إفراد العم والخال وجمع العمة والخالة فى الآية من آيات البلاغة القرآنية، ودقة ألفاظ هذا الكتاب العزيز وأسلوبه، وذلك أن العرف اللغوى يستعمل العم والخال اسمى جنس كالشاعر والراجز، وليس كذلك العمة والخالة، فجاء الإفراد والجمع على مقتضى ذلك العرف اللغوى الدقيق، ولا غرو فالقرآن الكريم كلام الله العزيز الحكيم أنزله على نبيه بلسان عربى مبين.

وكان تنكير المرأة التى وهبت نفسها للنبى سببًا فى اختلاف المفسرين حولها، أواحدة كانت أم أكثر، ومن هى أو هن؟ ومع كثرة الروايات التى أوردها بعض المفسرين[2] عن عدد الواهبات أنفسهن للنبي وفى تعينهن، فقد ذكر ابن كثير[3] عن ابن عباس من أنه لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة وهبت نفسها له، أى أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له وإن كان ذلك مباحًا ومخصوصا به لأنه مردود إلى مشيئته.

وهذا الذى ذكره ابن كثير وغيره من المفسرين يتلاءم مع منطوق

---

(١) انظر البحر المحيط جـ٧ ص٢٤١، وتفسير القرطبى جـ١٤ ص ٢٠٨، وتفسير سورة الأحزاب للأستاذ الدكتور مصطفى زيد ص: ١٨٤.

(٢) انظر الطبرى جـ١٤ ص: ٢٠٨.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٦ ص٥٧٦.

الآية الكريمة، فليس فيه ما يفهم منه أن الرسول قبل امرأة وهبت نفسها له بدليل هذا الشرط ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ ولم يثبت أنه أراد نكاح واحدة ممن وهبن أنفسهن له وإن أباحت له الآية ذلك وخصته به. فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يتزوج بامرأة وهبت نفسها له دون صداق، أما هو صلى الله عليه وسلم فقد أحل له نكاح من تهب نفسها له[1].

والآية بعد أن بينت ما أحله الله للنبي صلى الله عليه وسلم أشارت إلى غيره من المؤمنين وذكرت أنهم خاضعون لما فرضه الله عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم، فليسوا مثل الرسول فى جواز أن ينكح الرجل أكثر من أربع بمهر وولى أو أن تهب له امرأة نفسها، وإنما اختص الرسول بذلك لكى لا يكون عليه حرج فى استبقاء أزواجه وفى الاستجابة للظروف الخاصة المحيطة بشخصه.

ومع ما أحل الله لرسوله ومع ما تزوج عليه السلام فى حياته فإن الرسول لم يكن إنسانا ذا نزوات وشهوات لا تعرف القيود والحدود، فقد تزوج السيدة خديجة رضى الله عنها، وهو فى غضارة الشباب وفتوته وكانت هى أكبر منه سنا، وظلت المرأة الوحيدة فى حياته إلى أن ماتت وكان هو قد تجاوز الخمسين من عمره حين وفاتها. ثم تزوج عليه السلام بعد وفاة السيدة خديجة من تزوج من

(١) تفسير سورة الأحزاب ص. ١٨٥.

النساء، وكان لكل زوجة ظرف[1] خاص كان سببًا للتزوج بها، وليس منها ما يدل على أنه كان يستجيب لشهوة أو نزوة، فقد تجاوز السن التي هي مظنة الرغبات العارمة وكانت أعباء الدعوة بعد الهجرة تضيف إلى تقدم السن عاملا آخر في نفي ما يثيره بعض المغرضين من المستشرقين وأشباههم، من أن الرسول كان رجلا يأخذ بعقله الهوى وأنه تزوج من تزوج من نسائه بدافع من شهوة أو غرام، إذ أنه أباح لنفسه ما حرم على الناس كما ذهب إلى هذا المرحوم الدكتور منصور فهمي في رسالته التي حصل بها على الدكتوراه من جامعة باريس، ثم تبين له وجه الحق بعد ذلك فاعترف بما تورط فيه من خطأ جسيم.

إن محمدًا بشر ولكنها البشرية في جلالها وكمالها، ومن يقرأ سيرته أو يدرس شخصيته تطالعه عظمة هذا الرسول الأمي وكماله في كل مرحلة من مراحل حياته، وهؤلاء الذين صوروه بغير ما فطره الله عليه وألصقوا به ما هو براء منه إنما حملهم على هذا الأهواء وفقدان الموضوعية والأمانة العلمية.

(١) انظر حياة محمد لهيكل الفصل السابع عشر.

٤

وروى عن ابن عباس قال: خرج حمزة بن جندب من بيته مهاجرًا، فقال لأهله: احملونى فأخرجونى من أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات فى الطريق قبل أن يصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فنزل الوحى: ﴿ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغمًا كثيرًا وسعة، ومن يخرج من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفورًا رحيمًا﴾[1].

وهناك روايات متعددة عن المهاجر الذى أدركه أجله وهو فى طريق هجرته، فنزلت الآية بسببه، وهى روايات لا تهمنا كثيرًا[2]، ولكن الآية تدل على أن النية الخالصة هى أساس الخير والأجر، وقد روى عن الرسول عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ، ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه[3]».

---

(١) الآية ١٠٠ فى سورة النساء. والمراغم أى المذهب الذى يذهب إليه. والمادة ترجع إلى معانى المساخطة والمجاهدة، فالمهاجر حين يترك دار المنكر ويغضب على ما يرى من الشر، فهو يجاهد نفسه وعدوه «وانظر مفردات الراغب مادة رغم».

(٢) انظر تفسير المنار جـ٢ ص٣٦٠.

(٣) البخارى جـ١ ص١.

إن المؤمن الصادق فى إيمانه لا يشرك بالله شيئًا فى كل تصرفاته ويحرص دائمًا على أن تكون أعماله خالصة لله وحده، فهو سبحانه مطلع على السرائر والضمائر ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء.

وهذه الآية جاءت عقب الآيات التى تحدثت عن الذين لم يهاجروا وأقاموا قومهم ورضوا بحياة الضعف والمهانة، ولا يعقل أن تكون مبتورة الصلة بها وأنها نزلت فى شخص ما مات فى طريق هجرته، ولكن العلاقة بين هذه الآية وتلك الآيات وثيقة فهى تذكر أن من يهاجر فى سبيل الله لن تضيق به الأرض ففيها رحابة وسعة، وما تضيق الأرض إلا فى وجه الإنسان حين تضيق همته ويتقلص رجاؤه فى الله وتمسكه القيود والمخاوف فى دار الهوان، ثم تبين أن من خرج من قفص الخوف الذى يمسك به حيث يفرط فى دينه أو فى كرامته أو فى حقوقه، وهاجر إلى الله ورسوله فأدركه الأجل قبل بلوغ الغاية فإن الله بفضله ضمن له المغفرة والرحمة.. ولعل كل هذا يحمل هؤلاء الضعفاء على أن يفروا بدينهم من دار الاستكانة والخوف إلى دار العزة والأمن والكرامة.

٥

وإذا كانت الهجرة قد أتاحت للمسلمين حياة لا تعرف الاضطهاد والأذى، فإنها لم تخلصهم من محاولات النيل منهم، فأعداء

الإسلام فى داخل المدينة وفى خارجها يتربصون به ويكيدون له ويعملون[1] فى الظلام للانقضاض عليه، فيهود المدينة والمنافقون فيها أبطنوا الحقد والكيد والنفاق والدس، وأظهروا الوئام والسلام، وكفار مكة لم يكونوا يرون فى هجرة المسلمين انتصارًا لهم ويعتقدون أن هؤلاء المهاجرين لن يناموا عن الثأر لأنفسهم، فكانوا يتحينون الفرصة لتبديد شملهم والقضاء عليهم، فإذا أضيف إلى ذلك أن المهاجرين قد ضحوا بكل غال ونفيس لديهم من أجل الحفاظ على عقيدتهم، تبين لنا أن المسلمين فى مستهل حياتهم الجديدة بعد الهجرة كانوا فى أمس الحاجة إلى تشريعات تشد أزرهم وتحمى وحدتهم وتعدهم لخوض المعارك المتباينة ضد الشرك والنفاق والحقد، حتى تصبح كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى.

وكانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار تشريعًا يتلاءم مع طبيعة الفترة الحرجة التى كان المجتمع الإسلامى يمر بها عقب الهجرة، فقد حقق التعاون والتناصر بين أفراد هذا المجتمع تحقيقًا كفل له التماسك والتغلب على كل ما يتهدده فى المدينة أو غيرها.

والمشهور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بين المهاجرين

---

(١) انظر: محمد صلى الله عليه وسلم وبنو إسرائيل للدكتور مصطفى كمال وصفى.
والمعروف أن الرسول وادع اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وكتب لهم بذلك معاهدة، ولكنهم لم يحترموا ما شرطه الرسول لهم وعليهم فخانوا وغدروا - وهكذا شأنهم دائمًا فى كل عصر ومصر - وقد أمكن الله رسوله منهم وأورث المسلمين أرضهم وديارهم وأموالهم.

والأنصار بعد قدومه المدينة بخمسة أشهر، وأن هذه المؤاخاة كانت على الحق والمواساة والتوارث[1].

وروى أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: تآخوا فى الله أخوين أخوين[2].

وجاء عن ابن عباس قال: آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه المهاجرين والأنصار، وورث بعضهم من بعض حتى نزلت: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض﴾[3].

وقال ابن كثير: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحمه للأخوة التى آخى النبى صلى الله عليه وسلم[4].

وقال ابن القيم: كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على المواساة والتوارث بعد الموت دون ذوى الأرحام[5].

ويرى بعض المفسرين أن قوله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا

---

(١) الدرر ص٩٦

(٢) البداية والنهاية جـ٣ ص٢٢٦.

(٣) الدرر ص ٩.

(٤) البداية والنهاية جـ٣ ص٦٢٢.

(٥) زاد المعاد جـ٢ ص٧٩.

ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ نص فى المؤاخاة من حيث التوارث، ولذلك يذهب إلى أن الولاية فى الآية الكريمة خاصة بولاية الإرث لأن المسلمين كانوا يتوارثون فى أول الأمر بالإسلام والهجرة دون القرابة[1].

ويرجح الإمام محمد عبده أن لفظ الأولياء عام يشمل كل معنى يحتمله وكل ما يصح أن يقال فى مسألة التوارث أنها داخلة فى عموم هذه الولاية سواء كان بالإسلام أو القرابة[2].

ومهما يكن من خلاف بين المفسرين حول تفسير الولاية، وهل هى خاصة بالإرث أو أنها غير خاصة به وتنسحب على كل معنى تحتمله، فإن الآثار تضافرت على أن المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار شملت التوارث دون ذوى الأرحام.

لقد كان هذا الإخاء صلة فريدة فى تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد، لقد قام مقام أخوة الدم فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديات وغيرها.

وبهذا الإخاء ازدادت وحدة المسلمين توكيدًا واستطاعوا أن يصمدوا أمام عواصف الشرك والنفاق والكيد، وأن ينطلقوا من

---

(١) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٠٥.

(٢) تفسير المنار جـ ١٠ ص ١٠٥.

مهجرهم بعد أمد وجيز ليطهروا البيت الحرام من الأوثان والأصنام ويدخل الناس فى دين الله أفواجًا.

وتذكر الآية أن ولاية المؤاخاة - على اختلاف فى تفسيرها - لا تشمل الذين آمنوا ولم يهاجروا كما كان الشأن مع جماعة من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا استمساكًا بمصالح أو قرابات مع المشركين، غير أن هؤلاء وأمثالهم يجب على المسلمين نصرهم إن استنصروا فى الدين على شرط ألا يخل المسلمون فى هذه النصرة بعهد مضروب بينهم وبين قوم آخرين وهى قمة فى الاحتفاظ بالعهود تتطلع إليها البشرية ولا تنالها حتى الآن.

لقد كانت الهجرة العنوان الصادق للإيمان الخالص الذى لا يشوبه نفاق أو حرص على مصلحة فانية ومتعة زائلة، ولهذا لم يكن بين المؤمنين المهاجرين وهؤلاء الذين آثروا البقاء بين المشركين ولاية إخاء، ولهذا كذلك نهى الله المؤمنين أن يتخذوا من المنافقين أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله، فالهجرة البريئة التى لم تحركها بواعث المصلحة المادية دليل الإيمان الذى لايعرف الغدر والخديعة والذى لا يعنيه إلا إعلاء كلمة الحق: ﴿فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله، فإن تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم ولا تتخذوا منهم وليًا ولا نصيرًا﴾[1].

---

(١) الآية ٨٩ فى سورة النساء.

٦

ولما كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قد قامت مقام أخوة الدم بسبب الظروف الاستثنائية التى عاش فى ظلها المجتمع الإسلامى بعد الهجرة مباشرة، فإن الإسلام مع حفاوته بهذا الإخاء واستبقاء ينابيعه فى القلب مفتوحة دائمًا مستعدة للفيضان فى كل وقت وحين، حريص على أن يقيم بناءه على أساس الطاقة العادية للنفس البشرية لا أساس الفترات غير العادية التى تؤدى دورها فى الفترات الاستثنائية، ثم تترك مكانها للمستوى الطبيعى متى انقضت فترة الضرورة الخاصة.

ومن ثم عاد القرآن بمجرد استقرار الأحوال فى المدينة شيئًا ما بعد غزوة بدر الكبرى واستتباب الأمر للدولة الإسلامية وقيام أوضاع اجتماعية مستقرة بعض الاستقرار ووجود أسباب معقولة للارتزاق وتوفر قدر من الكفاية - عاد القرآن إلى إلغاء نظام المؤاخاة من ناحية الالتزامات الناشئة عن الدم مستبقيا إياه من ناحية العواطف والمشاعر ليعود إلى العمل إذا دعت الضرورة.

﴿النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن

تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك فى الكتاب مسطورًا﴾[1].

وهذه الآية فى مستهلها تقرر الولاية العامة للنبى صلى الله عليه وسلم، وهى ولاية تتقدم على قرابة الدم بل على قرابة النفس، فهو أرحم بالمؤمنين من أنفسهم فعليهم أن يحبوه ويطيعوه، وليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به».

وتقرر الآية كذلك الأمومة الشعورية لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لجميع المؤمنين، فيجب عليهم توقيرهن وعدم التزوج بهن بعده: ﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدًا، إن ذلكم كان عند الله عظيمًا﴾[2].

وبعد أن ألغت الآية نظام المؤاخاة من ناحية التوارث والتكافل فى الديات، وردت هذا إلى قرابة الدم والنسب ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ أشارت إلى أن هذا الإلغاء من تلك الناحية لا يعنى بتر صلات المودة من حيث التعاون والتناصر، ومن حيث التكافل المالى كذلك ﴿إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا﴾ فباب الهبة أو الوصية مفتوح لمن يقدم خيرًا وبرًّا.

---

(١) الآية ٦ فى سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٥٣ فى سورة الأحزاب.

والآية فى ختامها تقرر أن التوارث بالأرحام هو الأصل المقرر فى الأزل ﴿كان ذلك فى الكتاب مسطورًا﴾ فتقر القلوب وتستمسك بالأصل الذى يرجع إليه كل تشريع وكل تنظيم.

٧

والمهاجرون الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم أراد الرسول الكريم أن يقسم عليهم وحدهم دون الأنصار أموال بنى النضير[١] التى غنمها الرسول بغير حرب، وكان يريد من وراء ذلك أن يعوض المهاجرين عن بعض ما تركوه فى مكة وأن يحدث نوعًا من التقارب المالى بين المسلمين جميعًا فى المدينة، غير أنه عليه السلام لم يشأ أن يفعل ذلك إلا بعد أن يجمع الأنصار ويعرض عليهم ما يراه.

دعا الرسول الأنصار وشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين من البذل والإيواء والنصرة ثم قال لهم: إن أحببتم قسمت ما أفاءالله علىّ من بنى النضير بينكم وبين المهاجرين، وكانوا على ما هم عليه من

(١) النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة، وقد حاولوا قتل الرسول بإلقاء حجر عليه وهو جالس إلى جنب جدار من بيوتهم، ثم نقضوا العهد الذى بينه وبينهم، فخرج الرسول إليهم فى نفر من أصحابه ففر هؤلاء اليهود بعضهم إلى خيبر على بعد نحو مائة ميل من المدينة وبعضهم إلى جرش بجنوب الشام، وكان هذا فى شهر ربيع الأول سنة ٤ هـ.

السكنى فى مساكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دياركم.

ويقول سعد بن عبادة وسعد بن معاذ الأنصاريان: «بل نقسمه بين المهاجرين ويكونون فى دورنا كما كانوا» ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار».

موقف رائع نبيل، وصورة حية مشرقة من صور الإيمان والحب والإيثار، صورة تؤكد أن رابطة العقيدة أقوى وأغلب من رابطة الدم والنسب والموطن والجنس، وقد سجل القرآن الكريم هذا الموقف فى سورة الحشر فى الآيتين الثامنة والتاسعة بعد أن أورد قبلهما قصة بنى النضير، وما يجب فيما يفيئه الله على المسلمين من أموال بغير قتال:

﴿للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

لقد أثنى الله على المهاجرين والأنصار فى هاتين الآيتين، مدح المهاجرين بصدق الإيمان والجهاد، فقد خرجوا من ديارهم وأموالهم

يرجون فضل الله ورضوانه، وينصرون الله ورسوله، ومدح الأنصار الذى تبوءوا الدار أى استوطنوا المدينة قبل المهاجرين بإخلاص الإيمان وحب الذين هاجروا إليهم كما مدحهم بالإيثار فى أسمى صوره لأنه إيثار عن حاجة.

وتحذر الآية فى ختامها من الشح، لأنه المعوق عن كل خير وبر ومن خلص نفسه من إسار الشح وبذل فى سخاء كريم من ماله وعواطفه وجهده، فقد سلك طريق الفلاح وكان من الفائزين ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

وكان خلق الإيثار من الأنصار يقابل من المهاجرين بالعفة والقصد، ولم يكن أحد منهم بالذى يغريه كرم الأنصار فيدفعه إلى الجشع والطمع أو التراخى عن العمل واستمراء حياة الكسل. ولكن خلق الإيثار قوبل من المهاجرين بالشكر والقناعة والإقبال على العمل التماسًا للغنى والقدرة على الوفاء بالحقوق. فقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لما فرغ من قتال أهل خيبر[1] وانصرف إلى المدينة، رد المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التى كانوا منحوهم من ثمارهم.

وروى أن سعد[2] بن الربيع الأنصارى عرض على عبد الرحمن

(١) خيبر واحة كبيرة على بعد نحو مائة ميل من المدينة، كان يسكنها اليهود، وكان لهم بها حصون، وكانوا موصوفين بالمكر والخبث، وقد غزاهم الرسول فى سنة ٧ هـ.

(٢) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٠٩.

ابن عوف المكى أن يشاطره ماله - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم آخى بينهما - فأبى عبد الرحمن، وطلب إليه أن يدله على السوق، وفيها بدأ يتجر حتى أصبح بعد زمن ليس بالبعيد ذا غنى ويسار.

وروى أن كثيرًا من المهاجرين كانوا يأبون أن يعيشوا كلًّا على غيرهم وكانوا يعملون فى مزارع الأنصار[1].

وهكذا كان مجتمع المدينة بعد الهجرة يعيش حياة طيبة تظللها عواطف الإخاء والمحبة والإيثار والعفة والجد، وعز على اليهود أن يعيش المسلمون فى صفاء وتعاون وتعاطف فحاولوا إثارة الخلافات الجاهلية بين الأوس والخزرج ليعكروا صفو المحبة والإخاء بين المسلمين، وكان جزاؤهم العادل أن تطهر الأرض منهم، فأجلاهم الرسول عن المدينة وما حولها حتى لايعوقوا الركب عن متابعة السير والجهاد لترتفع أعلام الحق والعدل والمحبة والإخاء.

٨

ولا غرو بعد كل هذا أن يفوز المهاجرون والأنصار برضوان الله ورحمته وجنته، فالمهاجرون لم يتركوا مكة رهبة من الكفر ولا رغبة فى الدنيا، ولكنهم كانوا بذلك يرجون رحمة الله ويبتغون فضلًا منه ﴿إن

(١) مجلة الرسالة العدد ١١١٢ ص ١٨.

الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم﴾[1]؛ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾[2] ﴿والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقًا حسنًا وإن الله لهو خير الرازقين، ليدخلنهم مدخلاً يرضونه وإن الله لعليم حليم﴾[3].

وأما الأنصار فقد آووا ونصروا وضربوا أروع الأمثلة فى السخاء والإعطاء والحب والإيثار، ومما قاله الرسول فى بيان قدر الأنصار «لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار».

إن المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ورضوا عنه، كانوا المؤمنين حقًا وصدقًا، فأسبغ الله عليهم نعمة وجزاهم بما بذلوا وجاهدوا وصبروا خير الجزاء.

ولهذه المنزلة الجليلة للمهاجرين والأنصار استحقوا فضل الله فى التجاوز عن هفواتهم وتوفيقهم إلى اتباع طريق الرحمة والمغفرة، ففى غزوة تبوك التى أومأت إليها فيما سلف، يقول القرآن الكريم عن

---

(١) الآية ٢١٨ فى سورة البقرة.

(٢) الآية ٢٠ فى سورة التوبة.

(٣) الآيتان ٥٨، ٥٩ فى سورة الحج. وإذا كان القرآن لم يفصل القول عن المهاجرين والأنصار فإن كتب السيرة قد سجلت فى تفصيل صورًا رائعة من الفداء والجهاد كما كان من أم سلمة وصهيب وغيرهما. والحديث عن هذا يحتاج إلى كتاب مفرد.

بعض المهاجرين والأنصار: ﴿لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم﴾[1].

ويبدو من الآية أن بعض المهاجرين والأنصار هموا بالرجوع أو مالوا عن اللحاق فى الجهاد[2]، بسبب ما كان من المخذلين والمنافقين والذين فى قلوبهم مرض، ولكن الله - بفضله - تدارك قلوب هؤلاء فلم تزغ، إنه بهم رءوف رحيم، وتلك سنة الله مع أوليائه، إذا أشرفوا على الهلاك والبوار أمطر عليهم سحائب جوده وفضله فلم يضلوا طريق الفلاح والنجاح فى الدنيا والآخرة.

وفى قصة الإفك التى ذكرها القرآن فى سورة النور وردت هذه الآية[3] ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾.

وهذه الآية تتحدث عن موقف لأبى بكر رضى الله عنه مع مهاجر فقير يمت إليه بصلة القرابة هو مسطح بن أثاثة، وكان أبو بكر ينفق عليه، ثم آلى ألا ينفق عليه لاشتراكه فى إذاعة تلك الفرية المنكرة التى تقول بها المنافقون على السيدة عائشة رضى الله عنها.

---

(١) الآية ١١٧ فى سورة التوبة.

(٢) القرطبى جـ ٨ ص ٢٨٠.

(٣) الآية ٢٢ فى سورة النور.

فى السنة الخامسة للهجرة على أرجح الروايات بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أن بنى المصطلق يجمعون له فى حيهم على مقربة من مكة وأنهم يحرضون عليه يريدون قتله، فاستعد الرسول لحربهم وأخذهم على غرة كعادته فى أخذ أعدائه.

ويهتم المؤرخون بتلك الغزوة لا لذاتها ولكن لما ترتب عليها ونتج عنها، فمن آثارها تزوج الرسول من جويرية بنت الحارث سيد بنى المصطلق، كما كان من آثارها حديث الإفك عن السيدة عائشة رضى الله عنها وهى لما تزل فى السادسة عشرة من عمرها. وكان موقفها منه موقف إيمان وقوة تحطمت على جنباتها كل القوى وعنت كل الوجوه، وذلك أن الرسول لما فرغ من هذه الغزوة ودنا الجيش من المدينة قافلاً إليها، توقف ليلة للاستجمام من وعثاء الطريق، ولتستعد المدينة لاستقبال الأبطال المنتصرين، ولما نادى مناد بالرحيل، قامت السيدة عائشة لقضاء حاجتها، فانقطع عقد لها من جزع ظفار فحبسها ابتغاؤه وظنت أن الذين سيحملون هودجها ليضعوه على بعيرها سيستنكرون خفة الهودج حين رفعه، فلا يرحل الجيش حتى تجمع حبات عقدها، ولكن الذين حملوا الهودج لم يستنكروا خفته، فقد كانت النساء خفافًا فى ذلك الوقت..

وآبت السيدة عائشة إلى منازل الجيش فلم تجد أحدًا، فأقامت فى مكانها وقد اعتقدت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها، لكن الذين

يقودون راحلتها لم يدر بخلد أحد منهم أن السيدة عائشة ليست فى هودجها.

وغلب النوم السيدة عائشة وهى جالسة فى مكانها فنامت وكان صفوان بن المعطل السلمى من الذين يسيرون وراء الجيش، يلتقطون ما قد يخلفه من سلاح أو أمتعة، وكان الصبح قد أشرق حين وصل صفوان إلى منزل السيدة عائشة، فرأى سواد إنسان نائم فدنا منه، وكان صفوان يراها قبل أن يفرض الحجاب، فاسترجع حين عرفها فاستيقظت السيدة عائشة على صوته، فخمرت وجهها بجلبابها وأناخ صفوان راحلته، وركبت السيدة عائشة دون أن تكلم صفوان أو يكلمها وعلى حد قولها[1] : «والله ما تكلمنا بكلمة، ولا سمعت منه غير استرجاعه».

وانطلق صفوان يقود الراحلة، حتى بلغ المدينة، فقال عبد الله ابن أبى بن سلول شيخ النفاق عندما مرت به السيدة عائشة فى هودجها : والله ما نجت منه ولا نجا منها، امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها، وسرعان ما سارت هذه الفرية كمسرى غبار قذر أثارته عاصفة هوجاء فى بطن الصحراء، فكانت فى الآذان وقرًا، كما كان الغبار فى العيون أذى، ولم يمض وقت طويل حتى رج صداها فى جوانب المدينة فذعر المسلمون، واستولى عليهم الغم والكرب، وتبلبلت مشاعرهم وأفكارهم، وران على جو المدينة

(١) حديث الإفك - لمحمد الدسوقى ج ١٨ ط: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

سحاب داكن من الحيرة والشك، وفترت ملاطفة الرسول للسيدة عائشة حتى أحست بذلك ولم تكن تدرى شيئًا عما يخوض فيه الناس من حديث عجيب يخدش كرامتها ويلوث سمعتها، فقد ألم بها مرض الحمى عقب وصولها إلى المدينة، وتألم الرسول ألمًا شديدًا لما يسمع، وزاد من ألمه وحيرته أن الوحى لبث فترة طويلة لا ينزل عليه، وقد كان يتوقع فى كل حين نبأ من السماء يظهر الحق من الباطل، ولجأ الرسول إلى الصحابة يستشيرهم علّه يجد لديهم ما يكشف كربته، وهكذا كل إنسان عندما يشتد به أمر من الأمور فإنه يهرع إلى سواه ليخفف عن نفسه بعض ما ألم بها إن لم يكن عن طريق النصح والإرشاد، فمجرد الإفضاء إلى الغير بالآلام فيه عزاء وسلوى.

ونزل وحى الله بعد فترة ليعلن طهارة السيدة عائشة، وليبدد الشكوك والحيرة، ويكشف دعاة الإفك ويرشد المؤمنين إلى ما يجب عليهم فى مثل هذه الحالة، ﴿إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم. لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا وقالوا هذا إفك مبين. لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾[1].

---

(١) الآيات : ١١ - ١٣ فى سورة النور.

وكان ابن سلول هو الذى تولى كبر هذه الجريمة الشنعاء، وذكرت كتب التاريخ بعض الأسماء، كان لها دور الزعامة فى الترويج لهذه الفرية المنكرة. وهى غير ابن سلول : حسان بن ثابت شاعر الرسول، وحمنة بنت جحش شقيقة أم المؤمنين السيدة زينب رضى الله عنها، ومسطح بن أثاثة الذى يمت إلى أبى بكر بصلة القرابة، ثم زيد بن رفاعة الأنصارى.

وكان أبو بكر رضى الله عنه لما رأى اشتراك مسطح فى إذاعة حديث الإفك أقسم ألا ينفق عليه، وكان أبو بكر فى الواقع معذورًا فى قسمه، لأنه فى الجاهلية لم يبتل بهذا الذى ابتلى به فى الإسلام، وليس أدل على مبلغ الألم الذى كاد يقطع نياط قلبه من قول السيدة عائشة، وهى تصف حالة أبويها وقت نزول الوحى على الرسول فى بيت أبيها ببراءتها، «وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقًا من أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس»[1] لقد كانت لحظة رهيبة قاسية فى حياة أبى بكر وزوجه.

لهذا لا يلام أبو بكر حين أقسم ألا ينفق على مسطح فجريمته منكرة، ولكنه بهجرته خليق بأن يتجاوز عما كان منه، وأن يحظى بما كان يحظى به من عطف أبى بكر ورعايته.

---

(١) حديث الإفك : ٣١.

ونزلت تلك الآية التى تدعو إلى العفو والصفح عن المهاجرين فهم أهل لهذا بما قدموا فى سبيل الله، لقد جاهدوا جهادًا رفع عند الله منزلتهم، وبدل سيئاتهم حسنات ففازوا برضوان الله وجنته، وذلك هو الفوز العظيم.

وأعاد أبو بكر رضى الله عنه النفقة إلى مسطح ويروى أنه قال:

« والله لا أنزعها عنه أبدًا والله إنى أحب أن يغفر الله لى ».

وإذا كان المهاجرون أسبق إيمانًا وجهادًا وذكروا فى القرآن أكثر من الأنصار، فإن المفاضلة المسرفة بين المهاجرين والأنصار لا مسوغ لها، ويكفى - كما أومأت إلى هذا - أن الله تعالى وصفهم جميعًا بأنهم المؤمنون حقا وصدقًا.

رحم الله المهاجرين والأنصار ورزقنا التأسى بهم فى الإيمان والفداء والجهاد حتى نكون أهلاً لنصر الله الذى كتبه لعباده المؤمنين المجاهدين المخلصين، وصدق الله العظيم: ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾.

هجرة أخرى

ذكرت فى مقدمة هذه الدراسة أن حديث الهجرة فى القرآن ليس خاصا بذلك الحدث البارز فى تاريخ الدعوة الإسلامية، ولكنه تجاوزه إلى مطلق والصرم والترك والهجر..

وقد وردت مادة «هجر» بهذا المعنى فى القرآن سبع مرات: مرة واحدة فى كل من النساء ومريم والمؤمنون والفرقان والمدثر ومرتان فى سورة المزمل.

وسأتناول فى إجمال عرض الآيات التى وردت فيها مادة «هجر» حسب ترتيبها فى المصحف.

١

قال الله تعالى فى سورة النساء: [١] ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم

(١) الآية: ٣٤.

فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليًا كبيرًا﴾.

هذه الآية بعض من دستور البيت وتنظيم السلطات فيه، والإسلام يولى عناية خاصة بالأسرة من حيث قيامها واستقرار الحياة فيها، ولأنه يسير على قاعدة توحيد القيادة فى كل عمل حتى إذا كان اثنان فى مهمة فليكن أحدهما أميرًا، ودفعًا للشقاق والتنازع فى الرأى كان لا بد للأسرة من قائد ومدبر وقاية لها من كل عوامل الاضطراب أو الفساد. ولم يكن اختيار الرجل للقوامة[1] امتهانًا للمرأة وغضًا من قدرها، ولكن الرجل بمقتضى فطرته أقدر على قيادة الأسرة من المرأة فضلاً عن مسئوليته المادية من الإنفاق والبذل. ولا جدال فى أن الإسلام كرم المرأة أعظم تكريم وجعل لها من الحقوق والواجبات ما للرجل سوى هذه الدرجة التى نصت عليها الآية الكريمة: ﴿ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهم درجة﴾[2] وهى درجة الرعاية والحماية والمسئولية لا درجة السيطرة والتمييز.

ثم تعرض الآية بعد تقرير تلك الحقيقة التى لا يمارى فيها

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ٥ ص ٦٨، والمجتمع الإسلامى كما تنظمه سورة النساء للمرحوم الشيخ: محمد محمد المدنى ص: ٨٨ ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) الآية ٢٢٨ فى سورة البقرة.

إلا أعداء المرأة وإن زعموا أنهم يحامون عنها، إلى لونين من النساء، لون صالح تق يحافظ على الهدوء والسكون والموافقة كما يحافظ على الأعراض والحرمات وبخاصة فى غيبة الرجل، وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خير النساء التى إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك فى نفسها ومالك»[1]. ثم تلا هذه الآية ﴿الرجال قوامون على النساء..﴾

واللون الآخر التى عرضت له الآية هو لون يتوقع منه النشوز والإعراض والمخالفة، وهذا اللون لو ترك وشأنه فإن الأسرة لا محالة سينفرط عقدها، وما أحرص الإسلام على أن تظل الأسرة دائمًا قوية مترابطة يحكمها الحب والود والإخلاص والتفاهم، لذا رسمت الآية ما يجب إزاء هذا اللون من النساء من خطوات لمعالجة ذلك النشوز الذى يهدد أمن الأسرة ويسلب حياتها التعاطف والتآلف وربما أدى إلى الطلاق وهو أبغض الحلال إلى الله.

والنشوز فى معناه اللغوى الارتفاع، ويراد به فى الآية أن تستعصى المرأة على زوجها وتنفر منه، وكان علاجه كما ذكرت فى خطوات :

الخطوة الأولى : ﴿فعظوهن﴾ وذلك عن طريق النصح والتذكير بالخير فيما يرق له القلب أو التخويف من عواقب الشر على نحو من التحذير والتبصير، وليس الوعظ مجرد نصح وتحذير، فمن أساليبه

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٥ ص ١٧٠.

التسامح والإغضاء، فقد يكون فى ذلك حض للزوجة على أن تسامح وتدرك أن زوجها حريص عليها وأنه لا يواجه شدتها بالعنف والقسوة ولكن باللين والعفو والرحمة فتقلع عما هى عليه مقبلة من أسباب النشوز والخلاف. فإذا لم تنجح تلك الخطوة - وهى بلا مراء تجدى مع بعض النساء - فمعنى ذلك أن طورًا آخر من أطوار الخلاف أو مقدمة أخرى من مقدمات النشوز قد بدأت تفعل فعلها، من المناسب أن تقابل بما يتلاءم معها من التصرف والعلاج، فكانت الخطوة الثانية ﴿واهجروهن فى المضاجع﴾ وفى هذا التعبير دلالة على امتعاض الرجل وضيقه مما بدر من زوجه أو تعزم على فعله، والمرأة يؤلمها أن ترى زوجها عابسًا فى وجهها لا يشرق وجهه بالابتسامة كما يؤلمها أن تشعر بأنه منصرف عنها ولا يهتم بها، فإذا كان هذا الانصراف وذلك الامتعاض فى المضجع وهو مظنة الشوق إلى الزوجة، والإقبال عليها والتلطف معها، أثار هذا لدى المرأة مشاعرها الأنثوية الفطرية نحو الرجل وربما ردها إلى شىء من الحكمة والتواضع، فحاسبت نفسها أو راجعتها، وهذا هو السر فى أن التعبير جاء بالهجر فى المضاجع ولم يكن بهجر المضاجع، لأن هجر المضجع - مع كونه هجرًا - إلا أنه على صورة تساعد على تقبله أحيانًا والصبر عليه وقتًا ما، ولكن الهجر فى المضجع أشد إفصاحًا عن انصراف النفس فهو هجر مع قرب الدواعى وتيسرها[1].

(١) انظر. المجتمع الإسلامى، كما تنظمه سورة النساء ص ١٧١.

إن هذا الهجر موقف سلبي إلا أنه ذو تأثير ناجع فى حمل المرأة على أن تتخلى عن جريها وراء أهوائها أو انفعالاتها الجامحة، وهو دليل على أن الزوج ذو شخصية قوية لا تضعف أمام الإغراء أو العناد، وهذا يحول بين المرأة وبين التمادى فى النشوز..

وقد روى أن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم اتفقت كلمتهن على أن يطلبن منه ما لايقدر عليه، لقد طلبن منه أن يمتعهن ويغدق عليهن، لقد رأين المال يفيض بين يديه، ورأين أنه ذو سلطان بين العرب لا يقل خطرًا عن سلطان امراء الروم والفرس، فلماذا لا يعشن فى رغد كما تعيش نساء قيصر وكسرى والمقوقس..

ولم يستجب الرسول الكريم ﷺ لما اتفقت عليه كلمة زوجاته، وغضب منهن، ثم هجرهن شهرًا أو قرابته، وكان هذا الهجر درسًا قاسيًا وعلاجًا ناجحًا، كل منهن تتنصل مما جرى، وتلقى التبعة على غيرها، ولما نزل قول الله تعالى: ﴿يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلاً، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا﴾[1] دخل إلى حجرات أمهات المؤمنين وعرض على كل منهن واحدة واحدة ما أنزل الله فى شأنهن، فاخترن الله ورسوله.

(١) الآيتان ٢٨، ٢٩ فى سورة الأحزاب.

وظلل بيت النبوة الصفاء والسكون، وانقشعت عن أفقه تلك السحابة التى أظلته ردحًا[1] من الزمن.

بعد هذا الاستطراد الذى يتصل بهجر النساء الذى جاء خطوة ثانية فى معالجة بوادر نشوز المرأة نجد أن الآية قد ذكرت خطوة ثالثة فى دفع النشوز إذا عجزت الخطوة الثانية عن ذلك ﴿واضربوهن﴾ وهو ضرب خفيف لا يؤذى وهو مع خفته لم يلجأ إليه إلا بعد اضطرار، وليس المقصود به إهانة المرأة، ولكن مواجهة الانحراف والشذوذ، وطبعًا ليس كل النساء سواء فى العناد والاستجابة لمشاعر النزق والغضب، ومنهن من تقنعها الكلمة الطيبة، ومنهن من تحتاج إلى شىء من الحزم ومنهن من لا يجدى معها سوى الضرب فى عدل ورفق، وهذا من أجل المحافظة على بنيان الأسرة واستقرار حياتها.

والآية فى ختامها ترشد إلى أنه لا يجوز الانتقال من خطوة إلى التى تليها إلا إذا لم تنجح الخطوة السابقة ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً إن الله كان عليًا كبيرًا﴾ ومعنى ذلك أن المرأة إذا فاءت بالنصح والوعظ إلى رشدها، فإن الأخذ بالخطوة الثانية أو الثالثة يكون تجنيًا وبغيًا وإساءة للسلطة التى هى للإصلاح بالمعروف لا للتحكم والإذلال، والله سبحانه وتعالى أعلى سلطانًا وقدرة، فمن تجاوز سلطة أنعم الله بها عليه فسوف يلقى من العلى الكبير جزاء وفاقًا.

---

(١) انظر: مجلة الرسالة، العدد ٢٤٦ ص: ٤٦٥.

فإذا كان النشوز من قبل الزوج أو استحكم الشقاق بين الزوجين فقد رسمت آيات أخرى وردت فى سورة النساء العلاج والدواء ولا مجال هنا لتفصيل القول فى هذا الموضوع[1].

٢

وقال الله تعالى فى سورة مريم[2]: ﴿قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليًّا﴾

وهذه الآية طرف من حوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبيه، وقد جاءت على لسان الأب زجرًا لولده وتهديدًا له إن لم ينته عما يدعو أباه إليه بالرجم، وأن يقطع صلته بأبيه دهرًا طويلاً وهذا هو معنى «مليًّا».

إن إبراهيم عليه السلام قال لأبيه آزر الذى كان يعبد الأصنام ﴿ يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئًا﴾ إنه يخاطب فى أبيه العقل المفكر الذى يجب عليه أن ينفر من تمجيد أصنام يصنعها القوم بأيديهم، كيف تكون هذه الأصنام آلهة تعبد، لا شك أن من يعبد هذه الأصنام فقد ألغى عقله، وكان كالأنعام أو أضل سبيلاً. فهو يقول له: آلهتك التى تعبدها يا أبت لا تسمع ولا تبصر ولا تملك لك نفعًا ولا ضرًّا فهل هى جديرة بالسجود لها.

---

(١) انظر: المجتمع الإسلامى ص: ١٧٣.　　(٢) الآية: ٤٦.

وينتقل بعد أن خاطب فى أبيه العقل المفكر إلى أن يقول له : ﴿يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطًا سويًّا﴾ إننى أعرف ما لاتعرف، فهل تسمع لقولى وتتبع دعوتى ففيها الهداية إلى الدين القويم المستقيم. ثم يقول له : ﴿يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيًّا﴾ لقد تدرج معه، دعاه أولاً إلى التفكير السليم فيما يعبد، وأخبره بعد هذا بما لديه من اليقين ثم حذره من الرضوخ للشيطان فيما يأمر به من الكفر والعصيان، وينتقل أخيرًا إلى التعبير عن مشاعره الحانية نحو والده، وهى مشاعر صادقة لا يرتاب الآباء فيها إذا عبر الأبناء عنها، ﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليًّا﴾ إنه يخاف على والده من عذاب الله إذا مات على ما هو عليه من عبادة الأصنام، وما أجمل التعبير ﴿عذاب من الرحمن﴾ إنه يجمع بين الرهبة والرغبة، وبين العذاب والرحمة، ويرشد إلى أن الله رحيم بعباده إذا ما استقاموا على طريق الهدى والفلاح فإن أبوا إلا المضى فى سبيل الغواية والكفر فإن لهم عذابًا أليمًا، وصحبة مع الشياطين فى نار الجحيم.

فماذا كان موقف آزر من ابنه بعد كل هذا؟ لم يفتح قلبه وعقله لما قاله إبراهيم، وإنما انطلق يدافع عن الأصنام، ويحذر ابنه من الرغبة عنها، ويتوعده بالإهانة ويأمره بأن يهاجر بعيدًا عنه ﴿قال أراغب أنت عن آلهتى يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليًّا﴾.

ولكن ماذا كان رد إبراهيم على أبيه وهو يسمع منه هذا التهديد والوعيد؟ إن إبراهيم الصديق النبي يعلم أن أباه على ضلال، وأن ما صدر عنه أملاه عليه الجهل والتقليد، فجاء رده عليه: ﴿قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيًّا﴾.

إن أنبياء الله كانوا دائمًا يدعون قومهم إلى الهدى بالحكمة والموعظة الحسنة، وزاد إبراهيم مع والده تحية المسالمة والاستغفار له، فالله بنبيه حفي. أى بار به لطيف يجيب دعوته ورجاءه.

على أن موقف إبراهيم من أبيه وقوله له سأستغفر لك ربي يدل على وجوب معاملة الوالدين باللين والمسامحة والعطف بصرف النظر عن تباين العقائد بين الولد ووالديه حتى لو حاول الوالدان بابنهما الإشراك بالله وعبادة ما ليس له به علم، فعليه فى هذه الحالة أن يخالفهما، ولكن دون الإساءة إليهما: ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفًا﴾[1].

لقد جمع الله فى كتابه بين إفراده بالعبادة والإحسان إلى الوالدين وبخاصة عند الكبر. دلالة على مبلغ حقهما فى الرعاية وحسن العشرة من قبل أولادهما، وعلى جسامة الجرم فى التهاون بهذا الحق وعدم القيام به كما يجب أن يكون، وصدق الله العظيم: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما

(١) الآية ١٥ فى سورة لقمان.

أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرًا﴾[1].

٣

وأما سورة المؤمنون فقد وردت بها مادة هجر فى قوله تعالى: ﴿مستكبرين به سامرًا تهجرون﴾[2]. وهذه الآية تتحدث عن كفار مكة وموقفهم من القرآن الكريم، كما تتحدث عن هذا الموقف أيضًا آية الفرقان التى ذكرت فيها مادة هجر وهى: ﴿وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورًا﴾[3].

إن القرآن الكريم هو معجزة محمد الخالدة التى حفظها الله من التغيير والتبديل وستظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾[4].

وهى معجزة تختلف عن سائر معجزات الأنبياء الذين بعثوا من قبله؛ فقد كانت معجزات هؤلاء الأنبياء، عليهم جميعًا الصلاة والسلام، تنتهى بالوفاة، فموسى مثلا عليه السلام كانت معجزته العصا تنقلب حية فتلقف ما يأفك به سحرة فرعون، وكذلك كانت

---

(١) الآيتان ٢٣، ٢٤ فى سورة الإسراء.

(٢) الآية: ٦٧.

(٣) الآية: ٣٠.

(٤) الآية ٩ فى سورة الحجر.

معجزته أن يخرج يده من جيبه فإذا هى بيضاء للناظرين، فلما توفى الله موسى انتهت هذه المعجزة وأصبحت خبرًا يروى، وأيضًا معجزة عيسى عليه السلام، كانت إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، فلما توفاه الله إليه ورفعه وطهره من الذين كفروا، أصبحت معجزته خبرًا يروى، ولكن معجزة محمد مازالت بين أيدينا كما أنزلت عليه، وهذا أنصع دليل على عموم رسالته وأنها خاتمة الرسالات؛ لأنها فى كل زمان ومكان خطاب لكل فرد وحجة على كل ذى عقل: ﴿فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها﴾[1].

وهذه المعجزة التى أفحمت العرب، وهم فرسان البيان وأرباب القريض، وجدت من كفار مكة وزعماء الشرك فيها موقفًا يجسم عجزهم من الإتيان ببعض منها كما يجسم هلعهم من أن تستأثر بعقول العرب وتستحوذ على مشاعرهم فتهرع إلى محمد كل القبائل لتؤمن بما يدعو إليه وفى هذا قضاء على دولة الأوثان والطغيان.

إن العرب، وإن مهروا فى الشعر والخطابة وعرفوا بالبلاغة والفصاحة، كانوا على يقين من أن ما جاء به محمد ليس من نسق ما يقولون وهم أعجز من أن يحاكوه أو يقلدوه، ولكن عصبية الجاهلية سولت لهم أن يحاربوا هذه المعجزة بمختلف الوسائل حتى يصرفوا الناس عنها ويزهدوهم فيها.. ولكنهم بالرغم مما قاموا به باءوا بالخزى والهزيمة.

(١) الآية: ٤١ فى سورة الزمر.

ومن الوسائل التى لجأ إليها كفار مكة لمحاربة القرآن وصد الناس عنه، أنهم كانوا يحرضونهم على عدم سماع القرآن والتشويش على محمد : ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[1] قال ابن عباس : قال أبو جهل : إذا قرأ محمد فصيحوا فى وجهه حتى لا يدرى ما يقول، وقال مجاهد : المعنى «والغوا فيه» بالمكاء والتصفيق والتخليط فى المنطق حتى يصير لغوًا[2].

وقالوا عن الرسول إنه كذاب، وإنه ليس أهلا لما يدعيه من النبوة، ونزول القرآن عليه، وكان هذا محاولة لتنفير الناس منه والحكم على ما يتلوه عليهم بأنه ليس من عند الله : ﴿أؤلقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشِر﴾[3].

وأضاف الكفار إلى اتهام الرسول بالكذب اتهامه بأن هناك من يعاونه ويمده : ﴿إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلمًا وزورًا﴾[4].

إن الآية الكريمة تدمغ هؤلاء المتقولين بالظلم والزور، لقد ظلموا محمدًا إذ اتهموه بما يوقنون بأنه منه براء، لقد عاش بينهم قبل البعثة.

---

(١) الآية ٢٦ فى سورة فصلت.

(٢) القرطبى جـ١٥ ص٣٥٦.

(٣) الآية ٢٥ فى سورة القمر وأشر أى مختال متكبر أو عابث فرح.

(٤) الآية ٤ فى سورة الفرقان.

مثالا حيًّا للأمانة والصدق ورعاية العهد، فكيف يكذب على الله وينسب إليه قولاً لم يقله.

وقص الله فى كتابه على نبيه من قصص الأولين ما فيه عبرة وعظة: ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثًا يفترى﴾[1] ولكن هؤلاء الكفار قالوا عن هذا القصص الصادق: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[2].

وفى قولهم أساطير الأولين إشارة إلى بعدها فى الزمان فلا يعلمها محمد، صلى الله عليه وسلم، إلا أن تملى عليه من حفاظ الأساطير الذين ينقلونها جيلا بعد جيل، لذلك يرد القرآن عليهم بأن الذى يمليها على محمد، هو الله الذى يعلم الأسرار جميعًا ولا يخفى عليه نبأ فى الأولين والآخرين: ﴿قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورًا رحيما﴾[3]. يعفو عمن ينيب ويتوب.

وأهم كفار مكة أن يلقى محمد وفود العرب فى الموسم، لأنهم إذا سمعوا منه القرآن مالوا إليه وذاع ما ينادى به، فأرادوا أن يصفوا الرسول بصفة تزهد الوفود فيه ولا تجعلهم يؤخذون بما يلقيه عليهم من آيات الله.

اجتمع نفر من قريش لهذا وكان معهم الوليد بن المغيرة وكان ذا

---

(١) الآية: ١١١ فى سورة يوسف.

(٢) الآية ٥ فى سورة الفرقان.

(٣) الآية ٦ فى سورة الفرقان.

سن فيهم، فقال: ماذا تقولون عن محمد؟ قالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة[1] الكهان ولا سجعه قالوا: نقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته[2]، قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رجزه وهزجه ومقبوضه ومبسوطه[3]، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر، قال: لقد رأينا السحار وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم[4]، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق[5]، وان فرعه لجناة[6]، وما أنتم قائلون من هذا شيئًا إلا عرف أنه باطل وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته[7]..

وحظى هذا القول بالموافقة وانطلق به هؤلاء النفر لتحذير وفود

(١) الزمزمة كلام خفى لا يفهم.

(٢) بخنقه: أى الاختناق الذى يصيب المجنون، والتخالج، اختلاج الأعضاء وتحركها بلا إرادة، والوسوسة ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان.

(٣) هذه كلها أنواع من الشعر.

(٤) إشارة إلى ما يفعله الساحر من أن يعقد خيطًا ثم ينفث عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ومن شر النفاثات فى العقد﴾ أى الساحرات.

(٥) العذق النخلة، يشبهه بالنخلة التى نبت أصلها وقوى وطاب فرعها.

(٦) أى فيه ثمر يجنى.

(٧) ابن هشام جـ١ ص: ٢٨٨.

العرب. فهل نجحوا فى مسعاهم وشوهوا حقيقة محمد لديهم؟ لقد جاءت النتيجة على غير ما يأملون، وذاع خبر محمد بين القبائل، وأسلم من سمع القرآن منه.

وأشار الكتاب العزيز إلى ما كان من الوليد ووصفه القرآن بالسحر: ﴿فقال إن هذا إلا سحر يؤثر. إن هذا إلا قول البشر﴾[1].

وتوعد الله الوليد بعذاب شديد: ﴿سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر. لا تبقى ولا تذر﴾[2].

٤

وكانت آية «المؤمنون» التى وردت فيها مادة هجر، وكذلك آية الفرقان، لونًا من ألوان موقف قريش من القرآن، وهو موقف الإحساس العميق بأنهم يسمعون كلامًا ليس من صنع البشر وأن محمدًا بهذا الكلام سيفسد على أهل مكة جاهها ونفوذها بين العرب، فلم يتركوا بابًا من أبواب الكيد والحرب ضد هذا الكتاب العزيز إلا ولجوه.

وآية «المؤمنون» جاءت فى معرض عقاب هؤلاء الكفار يوم الدين وأن ما هم فيه من العذاب إنما كان بسبب استكبارهم عن

---

(١) الآيتان ٢٤، ٢٥ فى سورة المدثر.

(١) الآيتان ٢٦، ٢٧ فى سورة نوح.

الحق وعدم إذعانهم له : ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون. لاتجأروا اليوم، إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون. مستكبرين به سامرًا تهجرون﴾[1].

إن المترفين أشد الناس ولعًا بالانحراف والذهول عن المصير، فهاهم أولاء يفاجأون بالعذاب الذى لا يرحمهم، فإذا رفعوا أصواتهم مستغيثين فلا نصير لهم لاستعلائهم فى الأرض وتراجعهم على أعقابهم إذا تليت آيات الله، كأن هذا الذى يتلى خطر يحذرونه أو مكروه ينأون عنه، وكانوا مع نكوصهم وطغيانهم واستكبارهم يطلقون ألسنتهم بهجر القول، وهم يتحلقون حول الأصنام فى سامرهم بالكعبة، حيث ينالون من القرآن[2] والرسول. إن كلمة «تهجرون». تعنى الإفحاش فى القول والبذاءة فيه، وكان كفار مكة فى نواديهم وفى سمرهم يتخذون القرآن والرسول مادة للسخرية والهزء والاتهام مثل ما أومأت إليه آنفًا من قولهم عنه سحر وشعر وأساطير الأولين.

وأما آية الفرقان : ﴿وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا

---

(١) الآية ٦٦ فى سورة المؤمنون.

(٢) لعلماء التفسير آراء فى عود الضمير فى مستكبرين به، فمنهم من ذهب إلى أنه يعود على الحرم، ومنهم من قال الضمير عائد على القرآن، وقالت جماعة هو عائد على الرسول. «انظر تفسير ابن كثير جـ٦ ص٢٧» والراجح أن الضمير عائد على القرآن؛ لأن الآيات تتحدث عن استكبار المترفين عن سماعه، ولما كان استكبار هؤلاء عن آيات الله، وتهجمهم عليها يستتبع حتمًا الهجوم على الرسول أمكن القول بأن إفحاش المترفين شمل القرآن والرسول.

القرآن مهجورًا﴾ فهى تعبر عن ذلك الموقف أيضًا، وتشير إلى حزن الرسول ﷺ لما يصدر عن قومه من قولهم فى القرآن غير الحق[1]، أو لانصرافهم عنه.

لقد هجر هؤلاء القوم القرآن فلم يفتحوا له أسماعهم، ولم يتدبروه ليدركوا الحق من خلاله، وهجروه فلم يجعلوه دستور حياتهم، وقد جاء ليكون منهاج حياة يقودها إلى سعادة الدارين.

وهم مع هذا كانوا لا يتورعون عن السخرية والاستهزاء والقول السيئ .

ولألم الرسول ﷺ لأنه لم يأل جهدًا فى دعوة قومه، فلم يستمعوا لهذا القرآن ولم يقدروه، يعزيه ربه ويسليه، فتلك هى السنة الجارية قبله فى جميع الرسالات، فلكل نبى أعداء يهجرون الهدى الذى يجيئهم به، ويصدون عن سبيل الله، ولكن الله يهدى رسله إلى طريق النصر على أعدائهم المجرمين : ﴿وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرًا﴾ الفرقان آية ٣١.

٥

وفى سورة المزمل وردت مادة «هجر» مرتين فى قوله تعالى : ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلا﴾.

(١) جاء فى بصائر ذوى التمييز جـ ٥ ص : ٣٠٤ ت الأستاذ عبد العليم الطحاوى : «إن مهجورًا تعنى أنهم قالوا فيه غير الحق، وذكر القرطبى جـ١٣ ص٢٧ أنها تعنى أيضًا متروكًا».

إن سورة المزمل من[1] أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وكان الرسول بعد أن عاد من غار حراء وهو يرجف فؤاده لما رأى من الملك الذى هبط عليه وطلب منه أن يقرأ، ثم أسمعه آيات وعاها الرسول وآب إلى زوجه جزعًا خائفًا، قال لها: «زملونى زملونى» أى لفوق بالثياب ونام فى فراشه، وكأنه أراد الاستخفاء عن الملك وإراحة نفسه من عناء الطارئ الجديد، وما خامر قلبه من الهول الشديد، ولم يدر أنه الناموس الذى كان ينزله الله على إخوانه الأنبياء والمرسلين قبله.

وربما كان طلب الرسول صلى الله عليه وسلم التلفف بالثياب لقشعريرة برد شعر بها فى جسمه.

ونزل الوحى على الرسول ﷺ يخاطبه بأن يترك هذا التزمل والتلفف ويعد نفسه لتحمل مهمة جليلة ورسالة سامية، وهذا الإعداد يتمثل فى القيام لله بالليل وقراءة القرآن ومجاهدة النفس: ﴿يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا، نصفه أو انقص منه قليلا، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا، إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا﴾ إنه الوحى الذى يتضمن الدعوة إلى دين جديد، وتبليغه إلى الناس وتكليفهم العمل بأحكامه، ولا ريب أن ترك ما ألف الناس من العقائد ونبذ ما ورثوه من أسلافهم من التقاليد سيكون أمرًا ثقيلا شديد الوطأة

(١) انظر تفسير جزء تبارك للمرحوم الشيخ عبد القادر المغربى ص ١٧١ ط وزارة المعارف سنة ١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م:

عليهم، ولهذا فالرسول معرض لمتاعب كثيرة فى سبيل هذا الدين الجديد ، وحتى يواجه هذه المتاعب بعزم لا يخور، وهمة تعشق الجهاد وتستعذب الشدائد، أمر بأن يقوم الليل ويرتل القرآن، ولأثر هذا فى الاستعداد لتحمل مشاق الدعوة ومتاعب تبليغ هذا الوحى، تكرر الحديث عن قيام الليل : ﴿إن ناشئة الليل هى أشد وطئًا وأقوم قيلا. إن لك فى النهار سبحا طويلا﴾. أى أن تقلبك فى النهار واشتغالك بمهات الدعوة المقدسة سيساعدك عليه قيام الليل ودراسة القرآن.

وبعد أن قررت الآيات هذه المقدمات التى هى بمثابة التمهيد للدعوة انتقلت إلى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم، بأن يذكر ربه ويدعو إليه وينقطع لهذه الدعوة : ﴿واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا﴾ إنه رب كل شيء، وعليه أن يعتمد فى دعوته : ﴿رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا﴾.

ويأتى بعد كل هذا الأمر بالصبر، وتحمل ما يلق من قومه : ﴿واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرًا جميلا﴾.. والهجر هنا يعنى عدم مقابلة أذاهم بمثله والإعراض عنهم إعراضًا لا يشوبه شتم ولا مقاومة، لا قطع صلته بهم والنأى عنهم فقد بعث إليهم، ولابد أن يدعوهم إلى ما أمر بتبليغه، وهم سيعارضون ويتقولون عليه الأقاويل، فعليه أن يصبر ويتجلد ويعرض إعراضًا جميلا، يغضى عن الإساءة ويكون الإحسان ردًّا عليها.

لقد أمر محمد بأن يخاطب قومه بالحسنى وأن يدعوهم إلى الله بالحكمة التى تقضى بالتذرع بالصبر وضبط النفس وتحمل الأذى . ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى احسن﴾[1] .

كما أمر بأن يصبر كما صبر غيره من الأنبياء، فما بعث نبى إلا وكابد من قومه صنوف المشقات، ولاقى منهم كثيرًا من الأذى والاضطهاد، ولكنهم تجملوا بالصبر والتحمل والإغضاء حتى أتم الله عليهم النعمة وحقق لهم النصر والغلبة : ﴿فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل﴾[2] .

وبهذا الأسلوب كان محمد يدعو أهل مكة؛ يسيئون إليه فيحسن إليهم، ويفحشون له فى القول فيعرض عنهم ويهجرهم، ويصبون عليه وعلى من آمن به الأذى فيصبر، ويدعو الله لهم بالهداية لأنهم لا يعلمون .

وما كانت حروب الرسول صلى الله عليه وسلم انتقامًا من قومه، فقد كان يمكنه بعد فتح مكة أن يثأر منهم كما يشاء، ولكن الحروب التى خاض الرسول غمارها بعد الهجرة كانت لتحقيق الحرية الدينية والقضاء على الطغاة الذين يفرضون على الناس ما يعبدون .

---

(١) الآية ١٢٥ فى سورة النحل.

(٢) الآية ٣٥ فى سورة الأحقاف.

إن محمدًا صلى الله عليه وسلم كان المثل الكامل، والأسوة الحسنة فى مكارم الأخلاق، وكان لما اتصف به من حلم، وسماحة نفس، ورقة قلب وسعة صدر وعفة لسان، وكرم عفو؛ أثر فى نجاحه فى دعوته، وصدق الله العظيم: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾[1].

٦

ووردت مادة «هجر» فى سورة المدثر مرة واحدة فى قوله تعالى: ﴿والرجز فاهجر﴾.

وكلمة المدثر مشتقة من الدثار، وهو اسم الثوب الذى يلبس فوق الشعار، والشعار الثوب الذى يلى الجسد مباشرة، ومعنى المدثر أى المتلفف فى دثاره.

وأوائل هذه السورة من أوائل ما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم، فقد روى أن الرسول بعد أن لقنه جبريل سورتى اقرأ، ويأيها المزمل، فتر الوحى عنه زمنًا، ثم عاد الملك فتجلى للرسول ثانية فعراه صلى الله عليه وسلم شىء مما كان عراه فى المرة الأولى فجاء بيته وقال لأهله: «دثرونى دثرونى»[2] وبينا هو متدثر جاءه

(١) الآية: ١٥٩ فى سورة آل عمران.

(٢) تفسير جزء تبارك ص١٩٢ ويرى بعض المفسرين أن تدثر الرسول لم يكن بسبب تجلى الملك، ولكن بسبب إيذاء قومه له حتى شق عليه ذلك يومًا فجلس حزينًا فى بيته متدثرًا =

الملك فخاطبه قائلا : ﴿يأيها المدثر. قم فأنذر﴾.

إنه أمر من الله بأن ينهض للأمر العظيم الثقيل، إنه نذارة البشرية وإيقاظها فى سبات الجهل والمنكر والشر وتوجيهها إلى طريق الخلاص والسعادة فى الدارين.

ثم تلا هذا الأمر الكريم خمس آيات من بينها تلك الآية التى ذكرت فيها مادة ﴿هجر﴾ وهذه الآيات تعد دستور الدعوة والسلاح الماضى الذى يتحصن به الرسول من الأخطار التى ستعترض طريقه ورسالته : ﴿وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر. ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾.

والآية الأولى توجيه للرسول صلى الله عليه وسلم إلى تكبير ربه، فهو وحده الكبير الذى يستحق التكبير، وهو توجيه للرسول ليواجه نذارة البشرية ومتاعبها وأهوالها وأثقالها بهذا التكبير الذى يتضاءل إلى جانبه كل العقبات والمشقات.

وأما الآية الثانية فهى دعوة إلى تحرير النفس من سوء الأخلاق ورديء الخصال ﴿ وثيابك فطهر﴾ وهذا التعبير فى الاستعمال العربى كناية عن طهارة القلب، والخلق والعمل، طهارة الذات التى تحويها الثياب وكل ما يلم بها أو يمسسها.

- بثيابه مفكرًا فى أمره، وسواء كان تدثره عليه السلام لهذا أو ذاك فإن الوحى نزل عليه يحفه على المحبوب من المضجع والتشمير للدعوة الخاتمة.

ثم تنص الآية الثالثة على هجر الرجز وهو فى أصل معناه العذاب ثم كثر استعماله فى كل ما أوجب العذاب وأدى إليه من المعاصى والآثام.

وهذه الآيات الثلاث التى لا تتجاوز بضع كلمات استوعبت أمهات الفضائل الإنسانية، لأنها تحرر العقل من سلطة الأوهام بتقرير عقيدة التوحيد، وإفراد الله بالتعظيم والتمجيد، وتحرر النفس من سوء الأخلاق ورديء الخصال بالحض على الآداب الرفيعة والصفات الحميدة، وهى مع هذا لا تغفل حظ الجسد من وقايته شر الآثام الوبيلة والمعاصى المهلكة.

وإذا توفر للإنسان صلاح العقل والنفس والبدن فقد توفرت له السعادة الكاملة فى الدنيا والآخرة، وبقدر ما ينقص من ذلك يخسر من سعادته ويدنو من شقاوته[١].

وليس معنى أمر الله لنبيه، صلى الله عليه وسلم، بتحرير عقله ونفسه وبدنه أنه كان قد أصابه شيء من دنس الجاهلية، فقد ثبت بالنقل المتواتر الذى لا ريب فيه أنه، صلى الله عليه وسلم، كان كاملاً فى عقيدته هاجرًا للشرك، كاملاً فى نفسه، فلم يتلوث بخلق ذميم، كاملاً فى جوارحه، فلم يقترف معصية قط.

لقد عافت فطرة النبي صلى الله عليه وسلم السليمة قبل البعثة

---

(١) تفسير جزء تبارك ص ١٩٥.

ذلك الانحراف الذى كان فيه قومه، فلم يسجد لصنم قط، ولا شرب الخمر ولا لعب الميسر ولا اقترف شيئًا من موبقات الجاهلية، ولو كان فعل شيئًا من هذا لكان قومه بعد البعثة قد أخذوا عليه ما يدعوهم إلى البعد عنه، لكنهم اتهموه بالسحر والشعر والكهانة وطلب الملك، وما قالوا عنه: غادر أو خائن أو كذاب أو أنه سجد مثلهم للأصنام والأوثان.

إذا كان الأمر كذلك فماذا يعنى هذا التوجيه للرسول ﷺ؟ إنه يعنى طلب الدوام على ما هو عليه وتذكيره بأنه، صلى الله عليه وسلم، مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على القيام برسالته فضلاً عن أن هذا التوجيه يعنى أيضًا بداية عهد جديد فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم تتحدث الآيتان التاليتان عن صفتين هما أشد ما يلزم للقائم بالدعوة، أية دعوة كانت دينية أو دنيوية، سياسية أو اجتماعية، تانك الصفتان هما: الجود والصبر، فلا يمكن قط أن ينجح داع فى دعوته وهو ممسك شحيح، كما لا يمكن أن ينجح فيها إذا كان ملولاً جزوعًا، لا يستشعر الصبر والدأب والإلحاح..

﴿ولا تمنن تستكثر﴾ أى لا تعط وأنت مقدر فى نفسك أن ما تعطيه كثير، والإعطاء يشمل إنفاق المال والجهد فى سخاء. إن القيام بأعباء الرسالة يحتاج إلى بذل ضخم لا تحتمله النفس،

إلا حين تنساه، بل حين لا تستشعره من الأصل؛ لأنها مستغرقة في الشعور بالله شاعرة بأن ما تقدمه هو من فضله وعطاياه.

﴿ولربك فاصبر﴾ إنها الوصية التي تتكرر عند كل تكليف بهذه الدعوة. إن الصبر هو الزاد الأصيل في معركة الدعوة إلى الله، وهي معركة عنيفة طويلة لازاد لها إلا الصبر الذي يقصد به وجه الله، ويتجه به إليه احتسابًا عنده وحده.

إن هذه الآيات التي نزلت على الرسول الكريم وهو مقبل على الاضطلاع بمهمة جليلة مقدسة، إذا كانت توجيهًا له عليه السلام ومنهجاً لدعوته، فهي بالنسبة لجميع المسلمين منهج للسلوك، والدعوة إلى الله، فكل مسلم عليه أن يتعهد عقله بالتطهر من أدران الآراء، الفاسدة والأفكار المنحلة الدخيلة والاتجاهات الإلحادية الضالة، ونفسه من الأخلاق الذميمة والصفات البغيضة، وبدنه من كل ما يوهنه حتى يكون المسلم بذلك كله جديرًا بحمل أمانة الدعوة إلى الله على تباين درجاتها وميدانها. ويرى كل ما يبذله في سبيلها - مهما عظم - بعض ما يجب عليه.

وأخيرًا؛ فهذا حديث القرآن عن الهجرة غير التاريخية، عرضت له في إجمال، وهو يتناول كما رأينا جانبًا يتعلق بالصلة بين الرجل والمرأة، تلك الصلة التي يجب أن تقوم في نظر الإسلام على المحبة والمودة والرحمة والتعاون وما فرض هذا الدين القويم من تعاليم قد

يراها قصار النظر لا تتفق مع كرامة المرأة وشخصيتها إلا حفاظًا على تلك الصلة وتمكينًا لها بين الرجل والمرأة، ولعل من أجل ذلك كان فصم عرى تلك الصلة من أبغض الحلال عند الله.

والجانب الآخر الذى عرض له حديث الهجرة هذا يتناول بعض مواقف الكفار من الرسل ومعجزاتهم وما يجب أن يكونوا عليه لينهضوا بما كلفوا به.

على أن الهجرة فى هذا الحديث لا تعنى مجرد الترك والصرم، ولكنها مع هذا تعنى الضجر والكراهية والنفور، وربما كان هذا سببًا للنص على أن يكون هجر الرسول لقومه جميلاً، والله أعلم.

كلمة لا بد منها :

لا هجرة بعد الفتح

كانت الهجرة إلى يثرب فرضًا قبل فتح مكة، وكان من لم يهاجر من المؤمنين فلا ولاية بينه وبين إخوانه من المهاجرين والأنصار، وكان ذلك حتى يتجمع المسلمون فى المدينة ليكونوا قوة تأخذ على أيدى أعدائهم، وتمكن لدينهم بين الناس فلا يصدهم عنه طاغ أو مستعل فى الأرض.

وهذه الهجرة قد فرضت على المؤمنين فرضًا، وأكرهتهم ظروف مختلفة على ترك ديارهم وأموالهم وأهليهم، وهم مع هذا كانوا فرحين بها مستبشرين، لأنهم ينصرون الله ورسوله، ويجاهدون فى الله حق جهاده . .

إن الجاهلية، كما أسلفت، قد ناوأت الدعوة الجديدة مناوأة حاقدة باغية لا تعرف رحمة ولا عدلاً، ومكث الرسول بين قريش كما قال أحد الأنصار :

ثوى فى قريش بضع عشرة حجة يذكر لو يلق صديقًا مواتيا

لبث الرسول فى قومه ثلاث عشرة سنة يذكرهم ويدعوهم إلى

الإسلام، وهم لا يزدادون إلا عتوا واستكبارًا..

فكانت الهجرة أمرًا لا مفر منه ولا سبيل إليه حتى لا يستمر الشرك بصلفه وطغيانه وعناده، يضع الأشواك والعقبات في طريق دعوة التوحيد والوحدة والاخوة والمساوامة والحرية.

وأثمرت الهجرة ثمراتها المباركة، فقامت فى المدينة أول دولة إسلامية حققت فى أمد وجيز أعمالاً خالدة، كانت قمتها فتح مكة فى العام الثامن بعد الهجرة وتطهير البيت الحرام من الأوثان والأصنام..

وبعد فتح مكة ودخول الناس فى دين الله أفواجًا وبعد أن دالت دولة الشرك والبغى، روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد نية، وإذا استنفرتم فانفروا»[1].

ويذهب كثير من العلماء إلى أن المراد بنفى الهجرة بعد الفتح هو نفى الثواب العظيم الذى أعده الله للمهاجرين الأولين، فمن هاجر بعد الفتح فثوابه لن يكون كثواب هؤلاء المجاهدين السابقين، ومعنى هذا أن الهجرة باقية إلى يوم القيامة وأن النفى فى الحديث ليس منصبًا على وقوع الهجرة بعد الفتح، ولكن على الثواب الذى يناله المهاجرون.

ولا أرى فيما ذهب إليه عامة العلماء فى تأويل الحديث وقصر

---

(١) صحيح مسلم بتحقيق المرحوم الأستاذ فؤاد عبد الباقى، ص ١٤٨٨.

النفى فيه على ثواب المهاجرين حجة تطمئن إليها النفس وينزل عند حكمها العقل، فالحديث واضح فى نفى الهجرة بعد الفتح، وحمل هذا النفى على معنى خاص دون دليل قاطع لا يمكن التسليم به، وأود أولاً أن أذكر أن الهجرة قبل الفتح كانت جماعية شملت المؤمنين كلهم، بحيث عد من لم يهاجر خارجًا عن المؤمنين المهاجرين فلا تربطه بهم روابط المؤاخاة والموالاة، وأن الهجرة كانت تحولاً من وطن إلى وطن فرارًا من الإرهاب والإعنات، فهل تظل مثل هذه الهجرة الجماعية ويظل التحول الجماعى من وطن إلى وطن قائمًا بعد الهجرة وبعد أن أصبح للمسلمين شوكة ودولة..

قد يقول قائل إن الظروف التى ألجأت المسلمين قبل الهجرة قد تتحقق فى عصر ما بالنسبة لمجموعة من المسلمين فى وطن ما، فتكون الهجرة فرضًا عليهم وإن كان جزاؤهم عليها لا يصل إلى جزاء من هاجروا من مكة إلى المدينة..

ومثل هذا القول مرفوض، وما قال الرسول ذلك الحديث إلا لإبطاله وإدحاضه ولنفى كل الأسباب التى أدت إلى الهجرة قبل الفتح من الضعف والقلة وتحكم الطغاة.

إن هذا الحديث يرشد المسلمين إلى حقيقة يجب أن تكون ماثلة أمام كل مسلم حتى لا ينسى رسالته فى الحياة، وحتى يكون دائمًا صورة حية للإنسان الكريم العزيز، الذى يخوض غمرات الشدائد ذيادًا عن كيانه ووجوده ودفعًا لكل إثم أو ضيم يناله.

وهذه الحقيقة التى يرشد إليها الحديث هى أن المسلم لا يفرط فى وطنه ولا يستسلم لعدوه، وعليه أن يتخذ العدة التى تكفل له الحياة التى خلق من أجلها وأمر بالحفاظ عليها والموت دونها، وهى حياة العزة والكرامة ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾.

إن الهجرة فرضتها ظروف معينة وقد ذهبت تلك الظروف بعد فتح مكة، فإذا تحققت بعد ذلك للأمة الإسلامية فبإثم ما اجترحت أيديهم وما فرطوا فى أمر أنفسهم ودينهم، ذلك الدين الذى يدعو إلى القوة والخير فى كل مجالات الحياة حتى يكون دائما للمسلمين منزلة القيادة والريادة التى أرادها الله لهم.

والجهاد فى سبيل الله ما كان ماضيا إلى يوم القيامة إلا لدفع كل اعتداء تتعرض له الأمة الإسلامية وما نال هذه الأمة فى تاريخها القديم والحديث من ظلم واضطهاد حتى طردت من الأندلس بعد أن عاشت هناك نحو ثمانية قرون، وحتى طردت من فلسطين وقامت فيها دولة من اللصوص والعصابات تخطط فى حقد وكيد لقيام إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات؛ ما حدث كل هذا إلا لأن المسلمين نسوا أو تناسوا أن دينهم دين قوة فى العقيدة والبدن والعدة والوحدة.

إن الأمة الإسلامية صاحبة رسالة خالدة، ولن تستطيع حمل هذه الرسالة إلا إذا كانت قوية يخشى بأسها، ويخطب ودها، على أن قوة

الإسلام إنما هى لخير البشرية وسعادتها، فهى قوة لا تسعى لاستغلال الشعوب وانتهاك حرمات الإنسان، ولكنها سلاح يحمى الحق وينصره ويقضى على الظالمين والمعتدين.

إن الحديث الشريف حين ينفى الهجرة بعد الفتح فإنه ينفى كل الأسباب التى أدت إلى الهجرة قبله، ويشير إلى ما يجب أن تكون عليه الأمة الإسلامية من القوة والإعداد للجهاد، فى كل وقت حتى تدفع عن أرضها الغزاة، وحتى تكون على أهبة الاستعداد للنفير وحمل السلاح إذا ما اعتدى على بلد مسلم، وحتى ولو وقع الاعتداء على فرد واحد «وإذا استنفرتم فانفروا».

ويحدثنا التاريخ أن امرأة مسلمة وقعت أسيرة فى يد الروم فى معركة من تلك المعارك التى كانت تنشب بين المسلمين والروم فى زمن الدولة العباسية، وكانت تلك السيدة تعيش مع سيدها الرومى فى مدينة عمورية، وفى ذات يوم لطمها ذلك السيد العلج على وجهها الحر الكريم فوخزها ألم الذل وخزة صاحت على أثرها تستنجد بالخليفة العربى العظيم: «وامعتصماه، وامعتصماه».

وسخر السيد الرومى من المرأة قائلاً لها: «وماذا عسى أن يفعل المعتصم أيجىء على أبلق وينصرك؟ إنك ذليلة كسيرة، وقد كتبت عليك الشقوة، وهيهات أن يستجيب لندائك هذا الذى تنادين، ثم أشبعها ضربًا ولكمًا وهى تنادى، وامعتصماه، وامعتصماه.

وجاء رجل إلى المعتصم وبلغه نبأ هذه المسلمة الكريمة، فانتفضت نفس الخليفة الجليل انتفاضة الألم، وتجهز من فوره فى اثنى عشر ألف فرس أبلق تسطوى سنابكها الأرض طيًّا لتغيث الملهوف، وتستجيب للنداء الأبى.

وكانت عمورية مدينة حصينة، وبها من جنود العدو تسعون ألفًا أو يزيدون وحاصرها المعتصم، وأخبره المنجمون أنها لن تفتح إلا فى الصيف حين ينضج التين والعنب، وكان قدومه إليها فى زمهرير الشتاء، ولكن المعتصم أبى أن يستمع لصوت المنجمين المثبطين وشد على المدينة شدة بطل مغوار فدك أسوارها وأشعل النار فيها.

ودخل المعتصم عمورية وبحث عن تلك المرأة التى استغاثت به حتى وجدها وقال لها: هل أجابك المعتصم؟ وصار سيدها عبدًا لها ذليلًا[1].

ورحم الله أبا تمام حين مدح المعتصم وتحدث عن ذلك الفتح المبين مستهزئًا بآراء المنجمين:

السيف أصدق أنباء من الكتب	فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى	متونهن جلاء الشك والريب
أبقت بنى الأصفر الممراض كاسمهم	صفر الوجوه وجلّت أوجه العرب
تسعو ن ألفًا كآساد الشرى نَضجت	جلودهم قبل نضج التين والعنب

(١) مجلة الرسالة العدد ٧٥٧ ص ٣٤.

وأما الهجرة الفردية فقد كانت فى عصر البعثة لطلب العلم والتفقه فى الدين، وكانت أيضًا فرارًا بالعقيدة من الأذى والاضطهاد، فكان الرجل إذا أسلم وأقام بين قوم كافرين تعرض للإعنات والإرهاب فلا يجد بدًا من الهجرة إلى أرض يتمتع فيها بحريته الدينية الكاملة.

والهجرة من أجل العلم باقية ودائمة ولا يسوغ لعاقل القول بغير هذا، لأن الإسلام دين العلم والمعرفة والنظر والتدبر، فأول كلمة نزلت من دستوره الخالد تعد مفتاح العلم، وآيات هذا الدستور تحض فى مواطن كثيرة على النظر والتفكير، وتبين أن العلم يخدم الإيمان وأن المرء كلما ازداد علمًا ازداد من الله خشية، وأنه لا مساواة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾، ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾.

لقد فتح الإسلام أمام العقل البشرى مجالات البحث والعلم ودعا إلى الهجرة وراء المعرفة، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها وعند من رآها طلبها[1].

وكان أسلافنا من العلماء ينتقلون من بلد إلى بلد ويهاجرون من قطر إلى قطر من أجل العلم وخدمته فحققوا تلك النهضة العلمية التى قادت البشرية نحو التقدم والحضارة.

---

(١) انظر الفلسفة القرآنية للأستاذ المرحوم عباس محمود العقاد.

وأما الهجرة الفردية خوف الفتنة فى الدين فإن العلماء يقولون ببقائها واستمرارها إلى يوم الدين، فعلى كل مسلم أن يهجر دار الشرك إلى دار الإيمان إذا لم تحقق له تلك الدار الحرية الدينية والشخصية.

ولا جدال فى أن المسلم يرفض المهانة والذلة فى دينه ودنياه ويجود بكل ما يملك فداء لعقيدته وكرامته، ومن هنا فإنه لا يقبل أن يحيا بين قوم ينالون من حريته الدينية وإن كان يرفل فى رغد العيش ومتاع الحياة الدنيا.

إن الهجرة الباقية إلى يوم القيامة هى هجرة المساوئ والتوبة منها لا هجرة الأوطان، والتخلى عنها، وقد روى مسلم فى «كتاب الإمارة» من صحيحه عن أبى عثمان النهدى أن مجاشع بن مسعود السلمى قال: جئت بأخى «أبى معبد» إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفتح فقلت يا رسول الله بايعه على الهجرة، فقال صلى الله عليه وسلم: «وقد مضت الهجرة بأهلها» قال مجاشع: فبأى شىء تبايعه؟ قال على الإسلام والجهاد والخير، قال أبو عثمان النهدى: لقيت أبا معبد فأخبرته بقول مجاشع فقال: صدق.

وروى من حديث فضالة بن عبيد بن فاقد أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فى حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم؟ من سلم الناس من لسانه

ويده، والمجاهد؟ من جاهد نفسه فى طاعة الله، والمهاجر؟ من هجر الخطايا والذنوب»[1].

وعن أبى هند البجلى قال: كنا عند معاوية بن أبى سفيان وقد غمض عينيه، وأخذته سنة من النوم، فتذاكرنا الهجرة والقائل منا يقول قد انقطعت، والقائل منا يقول لم تنقطع فانتبه معاوية، فقال ما كنتم فيه؟ فأخبرناه - وكان قليل الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - فقال تذاكرنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها»[2].

إن الهجرة من مكة لا تعد سابقة للمسلمين فى هجرة أوطانهم إذا تعرضوا للاضطهاد، لأن تلك الهجرة كانت لها ظروفها الخاصة التى أصبحت الأمة الإسلامية بعد الفتح، يجب ألا تتعرض لها عن طريق هجرة الضعف العقلى والعلمى والحضارى والحربى، وهجرة الضعف الخلقى والنفسى والجسدى حتى يكون المسلمون دائمًا أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين.

---

(١) مسند الإمام ابن حنبل جـ ٦ ص ٢١ ط أولى.

(٢) الفتح الربانى جـ ٢٠ ص ٢٩٦.

الخاتمة

دروس ونتائج

وبعد، فما الذى تقدمه هذه الدراسة من نتائج، وما الذى تهدى إليه من عظات ودروس.

إن كل ما أسلفت يمكن أن يرشد إلى ما يلى:

١ - يظهر الحق على الباطل بمدى إخلاص المؤمنين بالحق، وبذلهم الأموال والمهج فداء له، وتقبلهم الشدائد بصبر لا يعرف اليأس وعزيمة تزيدها الصعاب مضاء وإصرارًا على بلوغ الغاية مهما يكن الثمن

فالمؤمنون فى مكة قبل الهجرة على حق فيما يدينون به ويدعون إليه، والجاهلية المتغطرسة على باطل فيما تقوم به من اضطهاد وتعذيب، وقوة أولئك وعددهم لا توازن بجانب قوة هؤلاء وكثرتهم، ولكن القلة المؤمنة صبرت وصابرت وأخلصت وجاهدت فحقق الله لها النصر والغلبة وكانت عاقبة الباطل الهزيمة والبوار: ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾[1].

(١) الآية ١٨ فى سورة الأنبياء.

فلا سبيل إذن لأهل الحق إن أرادوا لحقهم العزة، والنصر من أن يعيشوا له ويعملوا فى إخلاص من أجله لا يرهبهم سلاح الباطل وإن كان فتاكًا، لأن الموت فى ساحة الذود عن الحق أسمى ما تطمح إليه نفوس أهله والمؤمنين به، أما إذا أخلدوا إلى الوهن والكسل وظنون أن السماء لن تدع حقهم فريسة للباطل فهم واهمون، لأن نصر الله لا ينزل على الغافلين المهملين، ولكن على المخلصين المجاهدين : ﴿يـأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾[1].

٢ - لم تكن الهجرة فى جوهرها فرارًا وهروبًا ولم تكن غاية فى ذاتها، ولكنها كانت أمرًا لا مفر منه ولا سبيل إليه حتى تستطيع الرسالة الخاتمة أن تحيا فى بيئة لا تعرف الذل أو العبودية، لأنها رسالة الكرامة والعزة والإباء.

لقد كانت الهجرة أسلوبًا عمليًا فى نشر الإسلام والدعوة إليه، بعد أن فقد الرسول الأمل فى مكة، فقد صيرها المشركون بيئة فاسدة لا تصلح لنشر تلك الدعوة الجديدة.

٣ - وهؤلاء الطغاة الذين ناصبوا الدعوة الإسلامية العداء أبوا أن يكون الناس أحرارًا فيما يدينون به، فهم يسومون أتباعها مختلف ألوان الأذى والعنت لكى لا يؤمنوا بما يشاءون، وليظلوا على دين الآباء لا يصبأون عنه.

(١) الآية ٨ فى سورة محمد.

وهذا بلا جدال حجر على حرية الإنسان فى عقيدته، وإكراه له على أن يؤمن بما يفرضه عليه السادة والطغاة، وإذا عاش الإنسان فى ظل هذه العبودية ورضى بها فلا قيمة لحياته، ولا اختلاف بينه وبين الأنعام: بل هذه خير منه لأنها حرمت ما منحه الله له.

ولأن الإسلام رسالة عالمية خالدة جاءت لتحرر البشرية من الشرك والظلم، ولتعيد إليها كرامتها وعزتها وتخلصها من نير الاستبداد وحكم الطغاة ليحيا الناس أحرارًا أباة، كانت الهجرة لتحقيق هذه الحرية للناس جميعًا، فلا يعلو فى الأرض سلطان فوق سلطان الله ولا يكون لأحد سبيل على الناس فيما يؤمنون به.

إن الهجرة بتضحياتها العزيزة كانت ثمنًا للحرية الدينية والإنسانية التى كانت البشرية فى أمس الحاجة إليها فى ذلك الزمن.

٤ - وليست الحروب فى الإسلام، سواء تلك التى قامت بعد الهجرة أو عبر عصور التاريخ الإسلامى، إلا لحماية هذه الحرية والتمكين لها، ولم تكن لحمل الناس قسرًا على الإيمان لأنه: لا إكراه فى الدين، ولأن العقيدة الصحيحة فى نظر الإسلام أساسها الاقتناع القائم على المنطق والوجدان، وكل من يقول بغير هذا فهو إما جاهل أو حاقد، والزعم بأن الإسلام قام على السيف أو أن غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى يهضمون الحقوق والواجبات لا يقوم على دليل أو حجة وليس إلا أسلوبًا من أساليب التشويه والتشكيك.

٥ - والهجرة كانت عملاً منظمًا يخضع للتخطيط العلمى الدقيق، وكان هذا من عوامل نجاحها وآية على أن التوكل الحق على الله يجب أن يصحبه العمل المخلص والسعى الممكن، وأن من قصر فى الجد ولم ينل ما يتمنى فلا يلومنّ إلا نفسه.

إن قدرة الله لا يعجزها أن يأوى محمد إلى فراشه ليلاً فى مكة لتبزغ شمس اليوم التالى وهو فى المدينة دون أن يلجأ إلى غار ودون أن يستعين بمن يأتيه بأخبار أو يدله على طريق هجرته، ودون أن يتحمل ما تحمل من وعثاء السفر فى طريق طويل كله صخور ورمال، فضلاً عن شدة الحر وتوقع الخطر فى كل شعب أو ذروة جبل، ولكن قضت مشيئة الله أن تكون الهجرة على هذا النحو من الجهاد والتنظيم والتخطيط فعل بها أوضح دليل على أن تأييد الله لأوليائه وعباده منوط بما يبذله هؤلاء من جهد وعمل.

لقد ذاق محمد صلى الله عليه وسلم النصر بعد مرارة الصبر والكفاح والنضال، وكان ربه قادرًا على عصمته من أذى الناس إلا أنه جل شأنه أراد به ذلك حتى يفتح أعين الذين آموا على سنته فى خلقه، فلا يغتروا بانتسابهم إلى الإسلام من غير جهاد، أو يستسلموا إلى الوهن وهم يحسبون أنهم على ربهم يتوكلون[١].

٦ - والهجرة إلى المدينة كانت لغاية كبرى كما أومأت آنفا وهى

(١) مجلة الرسالة - العدد ٨٦١ صفحة ٣٤.

تحقيق الحرية للناس، وهى بهذا تفترق عن الهجرة إلى الحبشة التى كانت محددة بهدف الإيواء المؤقت حتى يجعل الله فرجًا للمؤمنين مما هم فيه من اضطهاد وإرهاب، أما الهجرة إلى المدينة فلم يكن هدفها الإيواء المؤقت، ولكن كان هدفها الانطلاق وتكوين قاعدة إسلامية ينتشر فيها الإسلام[1].

ولهذا؛ فالهجرة إلى المدينة كانت مطلع فجر جديد للإنسانية، وكانت حدًّا فاصلاً بين عصرين مختلفين كل الاختلاف، عصر التخلف العقائدى والفكرى والإنسانى وعصر الحرية والتقدم والازدهار فى مجال الإيمان واحترام الإنسان.

استطاع المسلمون بعد الهجرة إلى المدينة أن يقيموا الدولة، فقد تيسر لها كل أسباب قيامها من الأرض والناس والحكومة والقانون.

وبهذا استقر المسلمون فى مهجرهم، وعاشوا أحرارًا فى مزاولة شعائر دينهم، وأصبحوا قوة لها وزنها وتأثيرها فى الجزيرة، وتمكنوا بعد نحو ثمانية أعوام أن يعودوا إلى مكة فاتحين غانمين، وكانوا قد خرجوا منها من قبل مستخفين مطاردين.

ومن قاعدة الإسلام الأولى فى المدينة أرسل النبى كتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ويبلغهم ما بعث به.

٧ - وإن مما يدعو للدهشة أن يقبل الأوس والخزرج - وهم

(١) مواقف إسلامية صفحة : ١٠٥.

ليسوا من العدد والثروة والعتاد الحربى على درجة أفضل من قبائل العرب - أن يحموا دعوة ليس فى بلاد العرب كلها من يعيرها أدنى عطف، أو يرجو لها أقل نجح.

إن الأوس والخزرج حين هاجر بعض اليهود إليهم هربًا من الاضطهادات الرومانية ما كانوا يستطيعون أن ينتصفوا من هؤلاء اليهود فكيف يجرؤون على حماية دعوة يمكن أن تجتمع على مكافحتها جميع قبائل العرب، وقد أظهرت استعدادها لذلك بما أبدته قريش نحوها من الكراهة وما عاملت أهلها به من الاضطهاد والمقاطعة[1].

ولكنه الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب واستولى على المشاعر والضمائر حول الضعف قوة والخوف أمنا والفقر غنى وعزًّا، والجهاد غاية والشهادة أمنية، فلا تقدر قوة على حربه، أو الوقوف فى طريقه.

٨ - وهذا الإيمان الذى حول الأوس والخزرج إلى أنصار يأوون ويبذلون ويجاهدون هو الذى نزع من قلوبهم ما كان بها من أحقاد وأضغان وجعلهم إخوة متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين. وما يوم بعاث[2] عنهم ببعيد.

---

(١) انظر مجلة الأزهر المحرم سنة ١٣٦٢ ص ١٣.

(٢) بعاث اسم موضع فى الجنوب الشرقى من المدينة اشتهر بالواقعة التى جرت بين الأوس والخزرج (القاموس الإسلامى للأستاذ - أحمد عطية الله) وانظر فى أحداث يوم بعاث مختار الأغانى لابن منظور جـ ٢ ص: ١٣١ ت الأستاذ عبد الستار فراج.

ويوم بعاث هو آخر أيام الحروب بين الأوس والخزرج، وكان قبيل الهجرة، وفيه جرت بين القبيلتين معركة رهيبة، وكان اليهود قد اذكوا بينهما أسباب الشقاق والصراع، لتضعف قوتهم ويفنى رجالهم فيكون لليهود النفوذ والسلطان، واليهود هم الذين حاولوا بعد أن أسلمت الأوس والخزرج وصفت نفوسهم من أحقاد الجاهلية أن يذكروا هؤلاء بأيام حروبهم ليفرقوا جمعهم ويشعلوا نار العداوة من جديد بينهم، وكاد اليهود ينجحون فى بعض ما حاولوا لولا أن الرسول تدارك الأمر بحكمته ولباقته وخطب فى الأنصار قائلاً لهم: «الله الله أيها الأنصار، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم». وانجلت عن الضمائر والقلوب تلك الغشاوة الوثنية التى سعى بها اليهود لتطمس نور الحق ومشاعر الود والإخاء والحب، وأدرك الجميع أنها فتنة الشيطان تمكر بهم وتحقد عليهم، فسالت دموع الحزن لما فرط منهم، وألقوا سلاحهم من أيديهم وتعانقوا وعاد لهم صفاؤهم وحبهم وحبطت سياسة الوقيعة والخيانة والشر.

٩ - وإذا كان الإيمان قد غير الأوس والخزرج وجعلهم يداً واحدة وهم كانوا بالأمس القريب يقتتلون فهو الذى حمل المهاجرين على أن يدعوا كل شيء فى مكة، ويفروا بعقيدتهم إلى الله ورسوله.

وهناك من صور الفداء والتضحية التى تعد أصدق تعبير عن الإيمان القوى والجهاد الخالص الكثير، يكفى هنا أن أشير إلى طرف منها وبخاصة ما يدور فى فلك الهجرة وأحداثها.

فهذا على كرم الله وجهه ورضى الله عنه ينام فى فراش النبى وهو يعلم أن البيت محاط بفتية يحملون السيوف ليقتلوا صاحب هذا الفراش، لقد رضى سعيدًا أن يتغطى ببردة النبى وأن يواجه خطر الموت فداء للرسول ودعوته.

ولا يفعل ما فعله على إلا أصحاب العقائد الراسخة والذين يعيشون من أجل ما يؤمنون به ويموتون فى سبيله، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب.

وهذه أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما، كانت تتسلل إلى الغار وتحمل الطعام إلى الرسول وأبيها، وكانت عرضة لأن يراها أحد القرشيين فيسومها أشد ألوان العذاب حتى تخبره بمكان الرسول، وليس ما كان من أبى جهل من لطمها على خدها حين ذهب إلى بيت أبى بكر، وسألها عن مكان أبيها فأنكرت أنها تعرف عنه شيئًا إلا صورة مصغرة لما كان يمكن أن ينزله الكفار بها لو رآها أحد وهى تحمل الطعام إلى الغار، لكن أسماء لم تفكر فى شىء من هذا، وما كان يشغل بالها إلا أن تصل إلى الغار لتزود من فيه بالماء والطعام، كان يقينها أقوى من بطش الطغيان وفداؤها صورة رائعة لجلال الإيمان.

١٠ - وأما أم سلمة فقد جرت لها فى هجرتها أحداث لا يقوى على تحملها إلا من رزق إيمانًا لا تزعزعه النكبات ولا تزيده الشدائد إلا قوة وإخلاصًا وجهادًا.

لقد وقف أهلها ضد رغبتها فى أن تهاجر مع زوجها وعجز زوجها عن إقناعهم فى أن يتركوا زوجه وما تريد، فلما حالوا بينها وبين زوجها تقدم أهل الزوج إليهم يريدون أن يضموا «سلمة» الابن الصغير إليهم، ولا يأخذه أخواله، وعمد هؤلاء إلى ذراع الصبى وأمسكوا به، وكان أخواله ممسكين باليد الأخرى، وما زالوا يتجاذبونه حتى خلعوا كتفه، فأعولت أمه واشتدت الضوضاء. وأخيرًا غلب أهل الزوج وأخذوا الطفل.

أما أبو سلمة المسكين فكان مشدوهًا مما يجرى أمامه، ومع ما رأى، امتطى راحلته وولى وجهه شطر المدينة تاركًا ابنه وزوجته إلى كلاءة الله.

وبقيت أم سلمة فى مكة عند أهلها، أما ابنها ففى بيت أعمامه، وكانت فى كل صباح تخرج إلى الأبطح حيث يجتمع الناس للنزهة فتندب حظها وتندب شجوها صارخة وا زوجاه، وا ولداه.

ولبثت على ذلك حتى مر بها رجل من بنى عمها فرحمها ورثى لها وكلم قومها فيها فخجلوا، وقالوا لها: الحق بزوجك.

وتسرع أم سلمة لتأخذ طفلها وتركب بعيرها وحدها دون أن يرافقها أحد فى هذا الطريق الموحش الطويل، ولن تعدم لصًّا أو حيوانًا ضاريًا يقطع عليها طريقها لقد كان معها الإيمان الذى عمر قلبها، فما جعلها تفكر فى شىء غير أن تصل إلى مهجرها وتلحق بزوجها.

لقد قالت لعثمان بن طلحة، الذى لقيها عند التنعيم[1] وسألها: أو ما معك أحد؟: لا إله إلا الله وابنى هذا. ومن كان الله معه فلا يخاف إلا الله.

وأبى ابن طلحة - وكان مشركًا على دين قومه ثم أسلم - أن يدع أم سلمة تسير وحدها، وأخذ بخطام بعيرها وكان نعم الرفيق فى رحلة من رحلات الجهاد التى قل نظيرها فى تاريخ البشر.

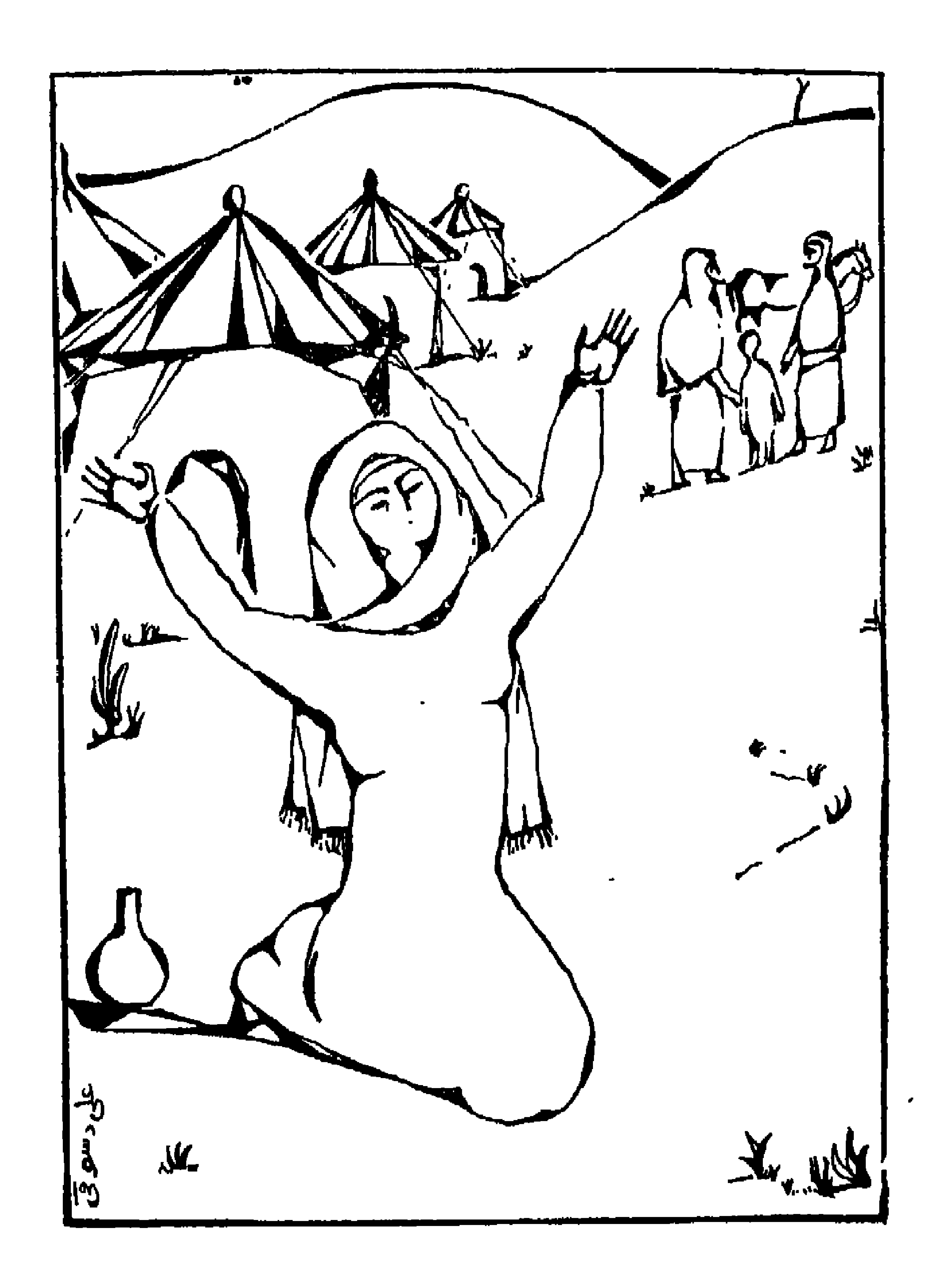
وكانت أم سلمة بعد ذلك إذا حدثت عن هجرتها تقول: ما رأيت قط صاحبًا فى سفر أكرم من عثمان بن طلحة[2].

١١ - ومن أجل كل هذا كانت الهجرة أجل الأحداث أثرًا وعبرًا، وكانت خليقة بكل احتفاء واهتمام لتكون للمسلمين أبدًا مصدر وحى للإيمان الصادق، والحب العميق، والإيثار الكريم والبطولة الفريدة، والتضحية الرائعة والتنظيم العلمى الدقيق، وكان من توفيق الله أن اختار عمر بن الخطاب حادثة الهجرة لتكون مبدأ لتاريخ المسلمين.

إن العرب قبل الإسلام كانوا كغيرهم من الأمم المبتدية يؤرخون بالأحداث العظيمة التى تمر بهم وتؤثر فى حياتهم كأيام العرب المشهورة فى حروبهم، والتى من أشهرها عام الفيل الذى ظلوا يؤرخون به حتى ظهور الإسلام، وكذلك حرب الفجار.

(١) مكان على بعد ثلاثة أميال من مكة.

(٢) مجلة الرسالة - العدد ٩٦٦ ص ٧.



وبعد ظهور الإسلام اتخذ المسلمون عدة نقط زمنية بدءًا لتأريخهم، فتارة كانوا يقولون: حدث كذا قبل البعثة بسنة أو بسنتين، أو بعدها بكذا سنة، وأحيانًا كانوا يؤرخون بالغزوات فيقولون في عام الخندق، أو بعد بدر بعامين، وهلم جرا.

وكان مثل هذا النظام كافيا للتحديد الزمنى الذى كانت تتطلبه حياة المجتمع يومئذ، فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وتشعبت فروعها وتعدد نشاطها كان لا بد لها من نظام ثابت للتاريخ ينسب إلى نقطة زمنية معينة، وتتبعه الدولة فى جميع أنحائها، فإن من دواعى الخلط وسوء النظام أن يكتب الخليفة مثلاً إلى وال فى الشام كتابًا يؤرخه فى السنة السابعة والعشرين من البعثة النبوية، فيرد عليه الوالى بكتاب يؤرخه بالسنة كذا من بدر.

١٢ - وأول من فكر فى اتخاذ نظام ثابت للتاريخ فى الإسلام هو سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وكان ذلك جزءًا من تنظيماته العامة للحكومة الإسلامية، ففى السنة الثالثة من خلافته جمع وجوه الصحابة وقال لهم: إن الأموال قد كثرت وما قسمنا منها غير مؤقت - أى غير محدد بتاريخ ينضبط به - فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك، ولقد رفع إلىّ صك محله شعبان فلا أدرى أى شعبان هو؟ الذى مضى، أو الذى نحن فيه، أو الآتى؟ ضعوا شيئًا للناس يعرفونه.

وتناقش القوم فى الأمر، فقال قائل منهم اكتبوا على تاريخ الروم، وقال قائل اكتبوا على تاريخ الفرس، ولكن عمر أبى أن يجعل تاريخ الإسلام على تاريخ أمة الفرس أو أمة الروم، وأراد أن يجعله على مبدأ لحادث إسلامى، فأشار بعضهم بأن يجعلوه من عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو من عند مولده، ولكن الإمام عليًا كرم الله وجهه أشار بأن يجعلوه منذ خرج النبى صلى الله عليه وسلم من أرض الشرك، يعنى يوم هاجر من مكة إلى المدينة، فراقت الفكرة لعمر بن الخطاب والمسلمين، فاتفقوا على أن يكون مبدأ التاريخ من سنة الهجرة.

١٣ - ولما كانت الهجرة حدثت فى أواخر شهر صفر أو أوائل ربيع الأول وهو الرأى الراجح، فإن الصحابة بعد أن اتفقوا على أن تكون الهجرة مبدأ التاريخ تعددت آراؤهم فى الشهر الذى يبدأ به هذا التاريخ، ثم استقروا على الأخذ برأى عثمان رضى الله عنه، بأن يؤرخوا من المحرم أول السنة وهو شهر حرام، وأول الشهور فى عدة العام، وهو منصرف الناس من الحج وأول شهر يتفرغون فيه إلى أعمالهم بعد اشتغالهم بالمناسك، وبذلك رجعوا نحو شهرين وجعلوا التاريخ من أول محرم هذه السنة، وكان الزمن بين الهجرة واتخاذها مبدءًا للتاريخ سبعة عشر عامًا[1]

(١) انظر مجلة الرسالة - العدد ١٠٦١.

وبهذا يتضح أن الهجرة وإن ارتبطت ذكراها فى أذهان المسلمين كل عام بشهر المحرم، فإنها لم تقع فى هذا الشهر، وإنما وقعت فى أواخر صفر أو أوائل ربيع الأول على أرجح الآراء.

وظل التاريخ الهجرى وشهوره القمرية العربية خاصة للمسلمين وللعرب إلى اليوم ،وسيظل كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

١٤ - وهذه الهجرة التى نحتفى بها فى كل عام لم تكن الهجرة الوحيدة فى تاريخ الرسل والأنبياء، وإن طغت بآثارها وأبعادها على ما عداها من الهجرات التى غبرت قبلها..

وكانت هجرة نوح عليه السلام أول هجرة فى تاريخ الرسل، وكانت حياة له ولمن آمن به وهلاكًا لأعدائه والساخرين منه.

دعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة غيره من الأوثان والأصنام ألف سنة إلا خمسين عامًا وهم لايزدادون منه إلا بعدًا ونفورًا إلى أن ضاق صدره بما يلاقى منهم، فدعا عليهم فقال: ﴿رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارًا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرًا كفارًا﴾[1]. فأنبأه الله أن العذاب سيحل بهم، وأمره ألا يخاطبه فيهم، وأنهم مغرقون، وأوحى إليه أن يصنع الفلك لينجو بها من العذاب النازل وليهاجر بها عنهم.

(١) الآيتان : ٢٦، ٢٧ من سورة نوح.

وصنع نوح - الفلك وكان قومه كلما مروا به سخروا منه وقالوا له : « أتصنع سفينة تمشى على الأرض ».

وجاء أمر الله وفار التنور وتفجرت ينابيع الأرض وهطلت السماء وجاء الطوفان فأباد الطغاة والمشركين ونزل نوح ومن معه فى السفينة وسلك فيها زوجين اثنين من كل ذى حياة.

واستقرت السفينة على الجودى بعد فترة تجاوزت العام فيما يقال[1]، وانتهت بذلك أول هجرة ميمونة فى سبيل العقيدة.

١٥ - وفى سورة العنكبوت وردت الآية التالية : ﴿فآمن له لوط وقال إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم﴾[2].

والآية تشير إلى قصة إيمان لوط عليه السلام بسيدنا إبراهيم حين رأى النار عليه بردًا وسلامًا..

قال ابن اسحاق : آمن لوط بإبراهيم وكان ابن أخته وآمنت به سارة وكانت بنت عمه[3].

وتذكر بعض الروايات أن إبراهيم كان عم لوط لا خاله[4].

ومهما يكن من تباين الروايات حول صلة لوط بإبراهيم فإن الذى

---

(١) مجلة الرسالة العدد ١٤٦ ص ٦٣٤.
(٢) الآية : ٢٦
(٣) تفسير القرطبى ج١٣، ص : ٣٣٩.
(٤) مجلة الرسالة - العدد ١٤٦.

تحدثت عنه الآية أن لوطًا آمن بإبراهيم، وأنه هاجر[1] معـه مـن أور الكلدانيين فى العراق إلى ما وراء الأردن حيث استقر بهما المقام.

ويذهب بعض المفسرين إلى أن الذى قال إنى مهاجر إلى ربى هو سيدنا إبراهيم، غير أن سياق الآية يرجح أنها جاءت على لسان لـوط عليه السلام.

وقوله : ﴿إنى مهاجر إلى ربى﴾ تعبير عن غاية تلك الهجرة، إنها لم تكن هجرة طلبًا للنجاة أو سعيًا وراء مغنم مادى، لكنها هجـرة إلى الله، تقربًا إليه، بعيدًا عن موطن الكفر والضلال.

وإذا كان سيدنا إبراهيم انتهت دعـوته لقـومه دون أن يـؤمن بـه منهم إلا فردان هما : لوط وزوجته سـارة، ثم تـرك وطنـه ولجـأ إلى الشام، فإن الله تبارك وتعالى عوضه عن هذا بذرية تمضى فيها رسالة الله إلى يوم الدين؛ فكل الأنبيـاء وكل الـدعوات بعـــده كانـــت فى ذريته، وهو عوض ضخم فى الدنيا والآخرة.

﴿ووهبنا له إسـحاق ويعقوب وجعلنـا فى ذريتـه النبـوة والـكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين﴾[2].

وهو فيض من العطاء جزيل يتجلى فيه رضوان الله سـبحانه على

---

(1) يقوى هذا ماروى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال عـن عثمان رضى الله عنـه حـين هاجر إلى الحبشة ومعه زوجته رقية : «إن أول مهاجر إلى الله بعد لوط عثمان بن عفان».

(2) الآية : ٢٧ فى سورة العنكبوت.

رجل أخلص لله بكليته، وأجمع الطغيان على حرقه، فكان كل شيء من حوله بردًا وسلامًا وعطفًا وإنعامًا، جزاء وفاقًا.

١٦ - وأما سيدنا يعقوب عليه السلام فقد كان بينه وبين أخيه عيسو شيء من الخلاف، فهاجر إلى بلاد ما بين النهرين عند خاله لابان، ومكث عنده يرعى عليه غنمه، وتزوج من ابنتيه ليئة وراحيل، ومن جاريتهما زلفى وبلها، ورزق منهن أولاده جميعًا، وكانت هجرته خيرًا وبركة عليه، فقد صار رب أسرة عظيمة كثيرة العدد، وأموال وماشية كثيرة، وعاد إلى فلسطين بعد ذلك، وولد له فى هجرته جميع أولاده إلا بنيامين.

١٧ - ولما ذهب إخوة يوسف به وألقوه فى الجب تخلصًا منه حتى لا يستأثر دونهم بمحبة والده، كان هذا بداية لهجرة أرغم عليها يوسف، وهو لما يزل صغيرًا ولكنها كانت خيرًا عليه وعلى أهله وعلى الناس جميعًا..

لقد التقط يوسف من الجب بعض السيارة ثم باعوه بثمن بخس لعزيز مصر، وفى قصر هذا، راودته امرأة العزيز عن نفسه فاستعصم واتهمته وتقولت عليه، وزج به فى السجن لتظهر آيات فضله، ولبث فى السجن بضع سنين إلى أن رأى الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع بقرات عجاف مهزولة، وسبع سنبلات خضر غلبتهن سبع سنابل يابسات، وصار العلماء والسحرة والعرافون فى حيرة ولم يستطيعوا

تفسير ذلك المنام، فذكر بعض من عرف يوسف فى السجن، واستعبره الرؤيا، أمر يوسف إلى الملك، فأذن له بأن يذهب إليه ويستفتيه فيما رآه الملك، ففسر له الرؤيا على وجهها، ثم اصطفى الملك يوسف لنفسه وجعله على خزائن الأرض ودبر أمر مصر إلى أن جاءت سبع سنوات مخصبة خزن فيها ما زاد على الحاجة، ثم فتح مخازن الادخار فى السنوات المجدبة فأطعم الناس وأنقذوا بذلك من هلكة الجوع.

وجاء إخوته فعرفهم وهم له منكرون، فداعبهم ودبر لهم تدبيرًا حتى جاءوا بأخيه بنيامين ثم عرفهم بنفسه، وقال لهم: « ائتونى بأهلكم أجمعين ».

١٨ - وكان موسى عليه السلام قد ألقته أمه فى اليم خوفًا عليه من فرعون فالتقطه هذا، ونشأ فى قصره ولما ترعرع وقتل القبطى وانتهى خبر القتل إلى فرعون اجتمع ملأ فرعون وقومه على قتل موسى، فجاء إليه رجل من آل فرعون من أقصى المدينة يسعى وقال له: ﴿إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين﴾ فخرج خائفًا يترقب قائلا: رب نجنى من القوم الظالمين.

وتوجه شطر مدين على خليج العقبة دون زاد أو دابة أو رفقة أو دليل، ولما بلغ ماء هذه المدينة بعد الجهد الشديد والجوع المضنى وجد على الماء أمة من الناس يسقون، ووجد من دونهم امرأتين

تذودان غنمهما عن الحوض، فلم يعجبه أن يتقدم أولو القوة وتتأخر المرأتان فسألهما عن شأنهما، فقالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل يشكو إلى الله حاجته إلى القوت وما به من مخمصة قائلاً : ﴿رب إنى لما أنزلت إلى من خير فقير﴾.

وجاءت إحدى المرأتين تمشى على استحياء وقالت له فى خفر : ﴿إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾.

وقص موسى على الشيخ قصته فعرض هذا عليه أن يزوجه من إحدى ابنتيه على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشرًا فمن عنده.

ولما قضى موسى الأجل، وصار حرًّا صادف أن أبعد فى الوادى وضل الطريق فى ليلة مظلمة باردة وحاول أن يقدح نارًا فصلد زنده ولم تشعل نارًا، وبعد لأى آنس من جانب الطور نارًا : ﴿فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتاها نودى يا موسى. إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى. وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى. إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾[1]. وبعد حوار أرسله الله إلى فرعون فكان مما قصه القرآن الكريم من شأنه من فرعون وشأنه مع بنى إسرائيل؛ فكانت هجرة موسى خيرًا وبركة عليه وعلى

---

(١) سورة طه : الآيات من ١٠ - ١٤.

بنى إسرائيل، كما أجاب فرعون بقوله : ﴿ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين﴾[1].

١٩ - أما المسيح عيسى بن مريم فله هجرة ليست كهجرة الأنبياء الذين هاجروا من بلادهم.

ذلك أنه لما ولد كان هناك ملك من قبل الرومان أخبر أن ملك اليهود ولد فى بيت لحم، فجد فى قتل الأولاد الذين ولدوا فى بيت لحم فى تلك الأيام، فأمرت مريم بأن تهاجر بابنها ومعها خطيبها يوسف النجار، فذهبت إلى مصر وأقامت فيها مدة قيل إنها كانت سبع سنين أو أقل، إلى أن أمرت بالرجوع ألى فلسطين بعد أن هلك من كان يقتل الأولاد طلبًا لقتل ولدها.

وهذه الهجرة نص عليها فى إنجيل برنابا، ولا وجود لها فى سائر الأناجيل المعروفة، فهجرة المسيح عليه السلام كانت تابعة لهجرة أمه خوفًا عليه ولم تكن بإرادته[2].

وهكذا، بيد أن محمدًا بهجرته لم يكن بدعًا من الرسل الذين هاجروا من قبل، وأن كل نبى لاقى من قومه الشدائد والأهوال وتحمل كثيرًا من الصعاب، وتعرض لمختلف الأخطار، واتهم بالكذب والادعاء : ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود.

(١) الآية ٢١ فى سورة الشعراء

(٢) اعتمدت فى الحديث عن هذه الهجرات على البحث الذى نشرته مجلة الرسالة العدد ١٤٦ بعنوان «هجرة الرسل».

وقوم إبراهيم وقوم لوط. وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾[1].

٢٠ - أكد المهاجرون بما جاهدوا وأكد الأنصار بما بذلوا وآووا تلك الحقيقة الخالدة وهى أن الإيمان يفعل المعجزات، وأنه عطاء بالنفس والبدن والمال والأهل والوطن.

كما أكدت المؤاخاة بينهم على أن صلة العقيدة فوق وشائج القربى، وأن رحم الإيمان أقوى من رحم الأبدان، وأن المؤمنين جميعًا أمة واحدة.. ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾[2]، وأن هذه الوحدة تفرض على المؤمنين التكافل والتواد والتراحم، لأنهم كما شبههم الرسول الكريم: كالجسد الواحد أو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.

إن صلة العقيدة بين المؤمنين كانت ولا تزال مناط قوتهم ومنعتهم وترابطهم فإذا وهت هذه الصلة كان ضعفها دليلا على دَخَل فى إيمانهم وسبيلا لتفرقهم وبلوغ الأعداء منهم ما يطمعون.

وما حقق المسلمون فى تاريخهم المجيد من بطولات وانتصارات إلا بفضل إيمانهم القوى الذى جعل منهم يدًا واحدة وما تعرضوا لما تعرضوا له قديمًا وحديثًا من نكبات ومشكلات إلا حين فرطوا فى

---

(١) الآيات ٤٢ - ٤٤ فى سورة الحج.

(٢) الآية ١٠٣ فى سورة آل عمران.

جنب الله، وتفرقوا وما كانوا ينجون من الأخطار التى تطبق عليهم إلا إذا اعتصموا بحبل الله، واجتمعوا على كلمة الله. ونبذوا كل أسباب الفرقة والشحناء كما حدث فى حرب التتار والصليبيين.

ونحن اليوم نواجه أخطارًا بالغة الأثر فيجب أن نعمل فى إخلاص ودأب على دفعها والقضاء عليها، ولا سبيل لهذا غير وحدة تتسامى فوق الأشخاص والرغبات والأهواء، وهو واجب تتقاضاه العقيدة قبل أن يتقاضاه حق الحياة.

لقد مزقنا الاستعمار وأرث فيما بيننا أسباب الصراع، ليظل له النفوذ والاستغلال، فهو وإن لم تكن جيوشه تدنس بلادنا، أو أعلامه ترفرف فوق ربوعنا، فقد تحالف مع الصهيونية الباغية على سرقة ديارنا وأموالنا وإقامة دولة دخيلة فى ربوعنا تكون كالشوكة فى ظهورنا وتشغلنا عن بناء قوتنا، وتنمية ثروتنا، فنبقى ضعافًا لا حول لنا ولا قوة..

٢١ - الهجرة الدائمة الباقية، هى هجرة السيئات والذنوب وما يقال من أن هجرة الأوطان باقية، وإن نفى الرسول للهجرة بعد الفتح إنما هو خاص بنفى جزاء الهجرة من مكة؛ إذ أن ثواب المهاجرين بعد الفتح، ليس كثواب غيرهم من المجاهدين السابقين غير صحيح.

إن حب الوطن من الإيمان، والدفاع عن أرضه جزء من الدفاع عن العقيدة، والمرء بلا وطن لاجئ أو مطرود، والمسلم رجل عزيز

أبى يرى الشهادة خيرًا من حياة الهوان. فكان من أجل ذلك مسئولا عن تحقيق العــزة لنفســه، ولغــيره وكان تفــريطه فى ذلك ثلمًا فى عقيدته، قبل أن يكون ثلمًا فى كرامته.

٢٢ - وقد كرم الإسلام المرأة أعـظم تـكريم ومنحهـا حقهـا كالرجال سواء بسواء، وليس التباين اليسـير بينهما إلا استجابة لسنة الفطرة التى تفرض تنظيمًا للعلاقات والمسئوليات بين الـرجل والمرأة دفعًا للشقاق فى محيط الأسرة وللتناقض والشذوذ فى محيط المجتمع.

إن المرأة قبل الإسلام كانت محرومة من كثير مـن حقـوقها، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بـدعوة الإصلاح والعــدل والحـرية والمساواة، أصبحت النساء كما يقـول الـرسول: شـقائق الـرجال، وتمتعت المرأة بشخصيتها الإنسانية الكاملة حتى إنه أجاز لها أن تكون عقدة النكاح بيديها.

وإذا كانت الحضارة الحديثة تـدعى أنهـا أعـطت للمـرأة كل حقوقها، فإن الذى لاجدال فيه أن هذه الحضارة حين احتـاجت إلى المرأة قالت لها خذى حقك ولا فرق بينك وبين الرجل.

على أن هذه الحضارة قد جنحت بـالمرأة أخيرًا إلى طـريق وعـر محفوف بالمخاطر الجسيمة، وقد اندفعت المرأة فى هذا الطريق بلا وعى ناضج وأضحت الحضارة بالنسبة لها مزيدًا من العرى والانطلاق.

إن الحضارة فى جوهرها علم وخلق، وليست ثوبًا يشف عما تحتـه

أو لا يكاد يوارى ما يجب ستره؛ احترامًا للمرأة وتقديرًا لها، وما نراه فى الحياة الآن برهان على أن ما قاله الرسول فى حقهن: بأنهن ناقصات عقل ودين؛ صحيح.

٢٣ - كل داع إلى أمر عظيم لابد أن يكون له أهلاً وإلا خاب سعيه وضاع أمله.

إن الدعاة والمصلحين يواجهون دائمًا بالإنكار والرفض والسخرية، وعلى قدر ما يكون عليه الداعى من الثقة بنفسه والتذرع بالحلم والصبر إزاء ما يفعله قومه معه يتوقف نجاحه وبلوغه غايته، فهذا محمد صلى الله عليه وسلم وهو إمام الدعاة وقدوة المصلحين والمجددين لم تضعف يومًا عزيمته، ولم يفقد الثقة بنفسه، وقد أمره الله بما أمره من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ومن الإعراض الجميل عن سفاهة قومه، والصبر على ما يقولون من هجر القول أو ما يفعلون من سيئ الأفعال..

وفى موقف سيدنا إبراهيم من أبيه صورة من صور الدعوة إلى الله بالحكمة واللين والرفق. إن الدعاة أساة، والطبيب الناجح هو الذى يعرف الداء والدواء، ويصبر على أذى المريض حتى يبرأ من علته.

٢٤ - وبعد، فإن الهجرة تذكرنا بأن الإسلام دين عزة وحرية وأن المؤمنين به لا ينامون على ضيم ولا يرضون بالدنية فى دينهم

ودنياهم ولا يبخلون على عزتهم وحريتهم بأموالهم وأنفسهم، وفرض عليهم جميعًا أن يهبوا ليدرأوا عن كل مسلم مهما نأت دياره الظلم والعدوان فهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

والمسلمون اليوم يواجهون عدوانًا لم يسبق أن واجهوا مثله مثله فى تاريخهم الطويل، إنه عدوان يريد لهذه الأمة التى جعلها الله خير أمة أخرجت للناس أن يضمحل كيانها ويتوقف تقدمها وتحيا ذليلة مستضعفة إن لم يتمكن من إفنائها أو تحويلها إلى لاجئين يعيشون على الإحسان والإعانة.

إنه عدو لا يتورع عن سلوك كل طريق يحقق له أطماعه وأطماع سادته الذين يدفعون إليه بمختلف أسلحه التدمير والإبادة، وهو فوق ذلك عدو لا يحترم قانونًا ولا عهدًا، إنه عدو يشبه قطاع الطرق أو قراصنة البحار يسرق عنوة ويقتل دون رحمة، وإزاء هذا الخطر لا سبيل إلى صده والحيلولة بينه وبين ما يريده منا غير وحدة قوية، واعتصام بتعاليم ديننا فيما نقول ونفعل.

وهنا أحب أن أقول للشباب بوجه خاص احذروا وتنبهوا واعملوا، وثقوا أن كل ساعة من العمر تضيع فى اللهو سوف تعيشون أمثالها فى ألم.

إن أعداءكم لا يقصدون النيل والفرات ليقفوا عندهما، إنما

يبغون محو الإسلام، وكل آثاره فى الأرض.

إن المستقبل لكم فإذا لم تدرأوا عنه هذا الخطر، أضعتم كيانكم وأمتكم وشرفكم، فعيشوا للمعركة، وكافحوا شرور الفساد والإلحاد والتخنث والترف، وإلا فسدتم من الداخل وتقوضتم وصرتم صيدًا هينًا على أعدائكم.

ولا تغرنكم كثرة العدد فهى غثاء كغثاء السيل إذا لم تعتصم بالعقيدة الرشيدة، والجد الحازم، والعمل المثمر. إن عدوكم لن يتخلى عن سياسة الغصب والنهب حتى يحقق أطماعه البعيدة وآماله الكبرى، وهى آمال إذا نالها - لا قدر الله - فإنكم ستكونون فى أوطانكم لاجئين أو مستعبدين.

إن هذا العدو منذ نحو خمسين عاما لم يكن شيئا ذا بال فى فلسطين، وها هو اليوم كما ترون، فكيف يكون إذا استمر على خطته بعد خمسين عامًا أخرى.

لا تظنوا أن أحدًا سيدفع عنكم خطرًا أو يحمى لكم وطنًا، ولكن عقولكم وسواعدكم ودماءكم هى التى تصون كرامتكم وعرضكم، وتحول بين عدوكم وبين ما يريده بكم.

إن الأمم المتحدة - على ما لها من فضل فى بعض الميادين - هى التى أقرت سرقة فلسطين وهى اليوم تقف مكتوفة الأيدى إزاء ما يقع من مجازر فى الهند الصينية أو كبت وقهر وتفرقة عنصرية فى

القارة الإفريقية وحتى فى أمريكا زعيمة العالم الحر كما يقولون.

إن هذا يفرض عليكم أن تأخذوا الحياة دائمًا مأخذ الجد، لا مأخذ اللهو والعبث والجرى وراء ما يأتيه بعض الشباب الأجنبى من تصرفات هى فى الواقع صدى للحضارة المادية المعاصرة التى تعيش على شطر واحد من شطرى الحضارة المثلى.

إن الحضارة المادية وسيلة لا غاية، فإذا انقلبت غاية أصبحت نقمة لا نعمة، ولابد أن تقود إلى الدمار.

ومن شواهد نقمة هذه الحضارة ذلك الخوف الذى يسيطر على الجميع من حرب لا تدع حيوانًا، وأيضًا ذلك الذى نشاهده من بعض الشباب، فهو يعكس قلقه النفسى ومحاولة الهروب من واقع حاضره المضطرب المشحون بالمخاوف والتوجس من مستقبل يحمل الدمار والهلاك.

إن لكم حضارة لا تعرف الانفصام بين الروح والبدن، وهى حضارة إنسانية، لأنها تمتاز بخصائص تجعلها خير الحضارات وهى: احترام الإنسان، والتمسك بالمثل العليا، وحرية الفكر والعقيدة واتباع العقل وتمجيده، ومن ثم لم تعرف التفرقة العنصرية ولم يكن غايتها استعباد الشعوب وسلب ثرواتها، وعبادة الشهوات والمال وتكريس كل الجهود من أجلها.

فليكن لكم إذن شخصيتكم الأصيلة، وقيمكم الفريدة، وفى

تاريخكم أمجاد باهرة، وبطولات رائعة خليقة بأن تحتذى، وأمامكم قبل هذا ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا، لن تضلوا طريق العزة والقوة والحضارة والكرامة والشرف والإباء، وهذا الذى يعصمكم من الضعف والهوان هو كتاب الله وسنة رسوله، وصدق الله العظيم: ﴿وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾[1].

والحمد لله أولا وأخيرًا

---

(١) الآية: ١٥٣ فى سورة الأنعام.

الفهرس

الصفحة

اقرأ فى هذه المجموعة

صوت أبى العلاء	د . طه حسين
أحلام شهر زاد	د . طه حسين
فى بيتى	عباس محمود العقاد
الشيخ الرئيس ابن سينا	عباس محمود العقاد
المهدى والمهدية	أحمد أمين
الصعلكة والفتوة فى الإسلام	أحمد أمين
خاتمة المطاف	على الجارم
أبو نواس	د . عبد الحليم عباس
دماء وطين	يحيى حقى
العشاق الثلاثة	د . زكى مبارك
سيكلوجية الجنس	د . يوسف مراد
النسيان	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الحب والكراهية	د . أحمد فؤاد الأهوانى
الوجودية والإسلام	محمد لبيب البوهى
الأمن والسلام فى الإسلام	د . جمال الدين الرمادى
الغزالى	طه عبد الباقى سرور

الإمام المراغى	أنور الجندى
بنت قسطنطين	محمد سعيد العريان
شاعر الشعب	د . سامى الدهان
قصص الحب العربية	د . عبد الحميد إبراهيم
غرائب الرحلات	محمد عبد الغنى حسن
عود على بدء	إبراهيم عبد القادر المازنى
غرام الأدباء	عباس خضر
أبو زيد الهلالى	محمد فهمى عبد اللطيف
عبد الرحمن الجبرتى	خليل شيبوب
ليلى العفيفة	عادل الغضبان
نساء محاربات	صوفى عبد الله
أبو القاسم الشابى	رجاء النقاش
جابر بن حيان	محمد محمد فياض
الصديقة بنت الصديق	عباس محمود العقاد
الكعبة على مر العصور	د . على حسنى الخربوطلى
غادة رشيد	على الجارم
الأحلام والرؤى	د . عبد العزيز جادو
النوم والأرق	د . أحمد فؤاد الأهوانى
جحا فى جامبولاد	محمد فريد أبو حديد
عمر بن عبد العزيز	أحمد زكى صفوت
نديم الخلفاء	عبد الستار فراج

طاغور	د . جميل جبر
طرائف من التاريخ	مصطفى الشهابى
تيمورلنك	محمد محمد فياض
شيخ التكية	محمد عبده عزام
المدينة المسحورة	سيد قطب

رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٤٣٣٧
الترقيم الدولى	٨-٢٠٧٢-٠٢-٩٧٧	ISBN

١ / ٨٦ / ٢٤٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)



بهذا الفعل الجميل (اقرأ) : تدعوك دار المعارف إلى قراءة تراث هذه السلسلة العريقة .. بأقلام كبار كتابنا .. لتعيش معهم .. كما عاش الآباء والأجداد .. وتكوِّن فى مكتبتك موسوعةً متفرقة فى فروع المعرفة المختلفة .

وإيمانًا منا بأن القراءة هى أقصر الطرق إلى الوعى والثقافة .. فقد يسَّرنا لك ذلك فى إخراج جيد .. وسعر زهيد .

٤٠٣٩٧٧/٠٢

